أحمد الشاعر

بئر براهم

BRAHAM'S WELL

رواية

تشكيل للنشر والتوزيع

سادر الكتب

بئر براهم

(السقوط)

تأليف

أحمد الشاعر

تَشكِيل للنَشر والتَوزيع

المقدمة

تعتبر هذه المقدمة جزءًا لا يتجزَّأ من أحداث الراوية القادمة في الأوراق بين يديك، سوف تنخرط في جزءٍ بسيط من عالمٍ كبير، قد اخترت أنا هذه القصة لأتعمق بداخلها، لا يوجد مجال للشك أنك من الممكن أن تكون غير مُصدِّق في تلك الأمور المتعلقة «بمؤامرة الشيطان» على البشر، ولكن دعني أُسديك نصيحة صغيرة: «لا تستهزئ بهم في العلن».

لكل مِنا شيطانٌ يحثنا على البعد عن الخط المستقيم، مَن منَّا لا يُخطئ ويعود عن خطئه؟ ولكن حين يتجسد ذلك الشيطان ليصبح معك في كل خطوة وأنت لا تعلم، هنا يجب أن يرتعش قلبك خوفًا.

أنظر إلى الشخص الجالس بجوارِك الآن، من الممكن أن يكون واحدًا منهم، من الممكن أن يكون أستاذك الجامعي، رئيسك في العمل، صديق طفولتك، أو زميلك الدراسي.

احذر منهم يا صديقي، وأرجوك لا تسقط في (بئر براهم).

أحمد الشاعر

الفصل الأول

حسين علام

القاهرة، عام 2020..

في إحدى ممرات سجن العقرب، يتجول الحارس يطمئن على وضع المساجين، الإضاءة خافتة قليلًا، الرؤية تكاد تكون ضبابية بعض الشيء، ظلَّ الحارس يتجول حتى توقف أمام زنزانة تحمل رقم 55، توقف قليلًا ثم تنفس الصعداء وبدأ في البسملة.

وجَّه نظره من خلال الفتحة الصغيرة ليجد السجين موليًا ظهرَه إليه، ابتلع ريقه ثم تحدث بنبرة مرتعشة قائلًا:

- حضرتك محتاج حاجة يا فندم؟

لم يأتِه ردٌ، وهو لم يكرر سؤاله مرة أخرى، وذهب مبتعدًا عن الزنزانة. وما لبث أن تباعدت خطواته، حتى سمع صوت همسات قادم من الزنزانة، لم يعِر للأمر انتباهًا، وتابع خطواته، ولكن زادت الهمسات واجتاحت رياح باردة الممر المظلم الذي لم يكن مظلمًا من البداية. عاد بنظره إلى الوراء، ولكن الظلام كان حالكًا، صوت الهمسات يزداد، رائحة كريهة بدأت في التسلل إلى أنفه، شعر بيدٍ تُمسك عُنقَه وصوت غليظ يتحدث قائلًا:

- حسين علام.. أحضر لي حسين علام.

عادت الإضاءة وسقط الحارس أرضًا والعرق يتصبب منه، ثم نهض مسرعًا. أما داخل الزنزانة، فوقف رجلٌ مشعلًا سيجارته الفخمة، ثم

وجَّه نظره إلى أحد الأركان المظلمة وتحدث قائلًا:

- هانت.. الحكاية هتبتدي.

فجاءَه الردُّ غليظًا:

- قصدك قربت تنتهي.

***

القاهرة، عام 2000..

وقف الجميع من موضع جلوسهم على المقاعد في محطة القطار استعدادًا، حين انطلقت الصافرة المزعجة معلنة عن وصول القطار، صوت صرير المكابح اقتحم عقل الطفل الغائص في نومه على كتف أمه، ليسرع هو الآخر ويرد له الصاع صاعين حين تعالى صوت بكائه لتبسمل أمه وهي تضمه إلى صدرها في محاولةً طمأنَته.

ازداد الصخب حين اندفع الجمع لينقضوا على عربات القطار، أمسكت الأم بطفلها الباكي وأحكمت قبضتها على قفةٍ صفراء اللون تضعها فوق رأسها، ودلفت إلى العربة وهي تدفع الناس عن يمينها ويسارها ليسقط البعض ويتشبث آخرون ببعضهم وكأنها فارس روماني يمتطي جوادًا سريعًا ويزيح بسيفه رأس أعدائه.

وصلت إلى مقعدٍ خالٍ، وجدت شابًا يجلس مغمض العينين واضعًا سماعات جهاز الووكمان في أذنه، لتُلقي له الطفل دون سابق إنذار، فينتفض ويجد نفسه حاملًا طفلًا صغيرًا لا يكف عن البكاء. نظر إلى السيدة ليجدها تضع قفتها الصفراء في الأعلى. أمعن النظر جيدًا من

النافذة بجواره، ثم عاد بنظره إلى السيدة التي أخذت منه رضيعها وجلست بجواره. نظر مرة أخرى من النافذة ليجد لافتة عريضة كُتب عليها «محطة مصر».

همَّ من مقعده مسرعًا وأمسك حقيبته الموضوعة بجوار القفة الصفراء في الأعلى، فارتطمت بها مما أدى إلى سقوط القفة، فانهالت عليه السيدة بالسباب، ولكنه لم يبالِ بما يسمعه من ألفاظ تعود بضمائرها المستترة على أُمه وأبيه.

ركضَ مُسرعًا يقفز إلى رصيف المحطة. كان شابًا طويل القامة، جسده رياضي، عضلاته منتفخة، بشرته سمراء، جبهته عريضة، يرتدي بنطالًا كلاسيكيًّا وقميصًا مزركشًا بألوان الطبيعة. أزال السماعات من أذنه ووضع الووكمان داخل حقيبته، ثم أغلق سحاب المعطف الذي يرتديه حين شعر بنسمة هواء باردة.

توجَّه إلى أحد المقاعد وجلس عليها، ثم أخرج لفافةً من التبغ وأشعلها. نظر إلى الساعة في يده فوجدها تقترب من العاشرة صباحًا، جال بعينيه وسط الزحام، فلم يجد ما يبحث عنه، فامتعض وجهه قليلًا، تنفس الصعداء ثم أخرج من جيب معطفه الأسود نوتة صغيرة وقلمًا، وبدأ في التدوين:

«العاشرة صباحًا، لحظة وصولي إلى محطة مصر».

ظل ينتظر ما يقرب من النصف ساعة، حتى ظهر أمامه شابٌ طويل القامة عريض الجبهة، يرتدي جلبابًا صعيديًا، وقف واحتضنه بشده ثم انطلقا معًا.

***

في إحدى الشوارع المتفرعة من ميدان رمسيس، سارَ الاثنان حتى وصلا إلى المقهى، اتخذا موضع جلوسهما، فتحدث ذو الجلباب بلهجة صعيدية:

- كيف حالك يا واد عمي؟

- بخير والله يا علي.. طمني انت أخبارك إيه؟

- كله خير الحمد لله.. معلش اعذرني اتأخرت عليك، بس يا دوبك عبال ما عرفت أزوغ من الحاج.

- ولا يهمك.. انت ساكن قريب من هنا؟

- الشارع اللي جاي على طول أول بيت.

- كويس.. أحسن أنا تعبان قوى بقى لي خمس ساعات في الطريق من سوهاج لهنا.

- دلوقتي ترتاح، بس الأول نشد حجرين وبعدين أوصلك وأرجع أنا للشغل.

- انت شغال فين دلوقتي صح؟

قالها وهو يشعل لفافة تبغه:

- أنا شغال عند الحاج نعمان العطار.

ثم بدأ يسعل حين سحب نفسًا من شيشته وعقب قائلًا:

- وانت يا حسين يا واد عمي، ما قولتليش جاي ليه؟

أصاب وجه حسين الاحمرار خجلًا وقال:

- إيه يا علي مش عايزني أقعد معاك لا إيه؟!

- عيب يا واد عمي، دا لو ما شالتكش الأرض أشيلك فوق راسي. المقصد من كلامي شغل ولا يومين و هترجع؟

- لا شغل إن شاء الله، جالي شغل في جرنان كبير هنا في القاهرة وهستلم بكرة.

- خير خير.. وأخبار البلد إيه على حسك؟

- كلهم بيسلموا عليك ومرات عمي باعتة لك أمانة.

- بركاتك يا حاجة.. بعتت إيه؟

مد علي يده ليبتسم حسين قائلًا بلهجة صعيدية:

- بتقولك: مابعتش الشهرية ليه يا واد؟

سحب علي نفسًا من شيشته وامتعض وجهه قائلًا:

- ربنا ما يحرمنا منك يامَّا.

نهض الاثنان متجهين إلى منزل علي، دلف حسين وحيدًا بعد أن أعطاه عليّ مفتاح المنزل، وضع حقيبته على الأرض، نظر حوله ليجدها عبارة عن غرفة صغيرة، تحوي أريكة وسريرًا متهالكين، وحصيرة وبعض من الأواني المتناثرة يمينًا يسارًا.

لم يكن هذا ما يحلم به حسين علام حين تخرج في كليه الإعلام، ولكنه يتمتع بحظ سيئ للغاية. نظر حوله مرة أخرى ثم جلس على الأريكة وأخرج نوتته الصغيرة ودون بها:

«الحادية عشرة والنصف، وصولي إلى منزل علي علام».

أراح ظهره وغاص في نوم عميق.

***

أصوات ارتطام الملاعق الصغيرة بالأكواب الفارغة والممتلئة تثير إزعاج ذلك الرجل الكهل صاحب محل الصحف القابع مكانه أمام المقهى، كانت مساحة المقهى كبيرة، والكراسي متهالكة إلى حدٍ كبير. يجلس عليها في ذلك الوقت من الصباح مجموعة من الشباب الهاربين من دروسهم يتناولون أطراف حديث بغيض عن الفتيات الحسناوات المارَّات بالشارع. علا صوت أحد الحاضرين قائلًا:

- ما تفتح الراديو يا كماشة على البرنامج العام نشوف إيه الأخبار!

تحرك كماشة هزيل الجسد ضعيف النظر صاحب العدسات الأربع مرتديًا جلبابه المخطط طوليًا، ومرتديًا مريلة بيضاء وخرقة بنيه اللون يضعها فوق كتفه، أدار زر تشغيل المذياع ليصدر منه صوت أم كلثوم قائلة:

«رجعوني عنيك لأيامي اللي راحوا».

تعالت أصوات الحاضرين، ومنهم علي علام الذي نادى بصوته كماشة قائلًا:

- علِّي الصوت يا ابني، خلينا نتسلطن وإحنا بنغلبه.

أنهى جملته ناظرًا إلى رجل حليق الرأس ضخم البنية، يجلس أمامه وهو يوزع أوراق الكوتشينة عليهم، ثم تحدث الرجل بصوت جهوري:

- متنساش يا ابن علام إنك عليك 20 جنيه من امبارح عشان غلبتك، فأنا هعملك عرض، لو غلبتك النهاردا هحسبلك كله 30 بلبل.

- وأنا موافق.. بس لو أنا غلبتك؟

حك الرجل مكان لحيته غير الموجودة وقال:

- هديك 50 مقفولة.

تنفس علي الصعداء واعتلت وجهه ابتسامة بلهاء، وتحدث بحماس بالغ:

- يبقى بلا بينا..

بدأ اللعب بينهم حين رمى علي ورقته الأولى، فابتسم الرجل الآخر وقد بصق على الأرض قائلًا:

- بصرة يا علوة.. اللي بعده..

امتعض وجه علي قليلًا واستمر في اللعب، وكانت الغلبة للرجل الآخر، حتى استوقفه الرجل قائلًا:

- بقولك إيه.. الكوتشينة دي إزاي فيها اتنين كومي؟

- ما هو واحد آهو قدامك لسه قاشش بيه!

- أمال اللي في إيدي دا إيه؟ انت نصاب يا علي!

- لم لسانك بدل ما أوريك شغلك!

- تورى مين؟ أنا مش هكمل لعب مع واحد نصاب. وأدبًا ليك هتدفع 30 جنيه ودلوقتي.

- مفيش منه الكلام دا..

- خلاص يبقى هتضرب بيهم.

أمسك الرجل بتلابيبه وقد بادره بلكمة في خده الأيسر، فرد عليه بمثلها، واجتمع الناس حولهما، منهم من يشجع على استمرار ذلك الشجار، ومنهم من يحاول منعه.

استيقظ حسين على صوت شجار يأتي من الشارع، نظر حوله مغمضًا إحدى عينيه، فوجد نفسه ما زال وحيدًا. انطلق إلى النافذة الصغيرة لينقض عليه ضوء الشمس ويحجبه هو بيده، حتى بدأت عينه تتكيف مع النور الساطع. نظر فوجد علي ابن عمه في وسط شجار عنيف، فهرول مسرعًا إلى الشارع ثم التحم مع الرجل الممسك بتلابيب ابن عمومته، سدد له اللكمات دون سابق إنذار، فرد عليه الآخر بلكمة بالقرب من عينه. ظل الشجار مشتعلًا حتى نجحوا في تهدئتهم. فتكلم الرجل قائلًا:

- جايب لي بلطجي يضربني يا علي!

فتحدث حسين منفعلًا:

- عايزني أعمل إيه وأنا شايف ابن عمى بيتخانق؟!

- نفهم الأول سبب الخناقة.

- هيكون إيه اللي حصل يخليك تضربه كدا؟

خرج علي عن صمته موجهًا حديثه إلى حسين:

- سيبك منه يا حسين ويلا بينا..

- لا مش هتمشي إلا لما تدفع اللي عليك.

نظر حسين إلى علي قائلًا:

- الحوار دا على فلوس يا علي؟ ما تقول يعم ندفعها ونخلص.

- دا حوار مش بتاعك يا حسين.

- أنا وانت واحد.. كام الفلوس؟

تحدث الرجل وهو يهندم قميصه:

- تلاتين جنيه، ابن عمك خسرهم.

- خسرهم!!

قالها حسين متعجبًا.

- آه، خسرهم على القهوة.

نظر حسين غاضبًا:

- انت بتلعب قمار يا علي؟

- يعم دا لزوم التسلية مش أكتر.

أخرج حسين محفظته من جيب سرواله الخلفي، ثم أعطى الرجل المبلغ، وحين همَّ الرجل بالانصراف استوقفه حسين قائلًا:

- ما تبقاش تلعب معايا تاني..

ثم وجَّه نظره إلى علي قائلًا:

- ابن عمى خلاص بطل القمار.

أمسك حسين بيد علي وتوجها إلى الغرفة محل سكنهم، جلس حسين على الأريكة بجوار علي وظل ينظر له في لوم، فتحدث الأخير قائلًا:

- والنبي يا واد عمي ما تبصليش كدا.

- أمال عايزني أبصلك إزاي بعد اللي سمعته؟

- يا عم دا لزوم التسلية مش أكتر.

- تقوم تغضب ربنا! وليه؟ وانت شغلك مش مكفيك؟

نهض علي وهو يحضر قلة صغيرة وتجرع منها بعض الماء، ثم عقب ساخرًا:

- يكفي إيه بس؟ انت أصلك ما تعرفش العيشة في مصر عاملة إزاي.

- لا عارف، انت ناسي إني عشت هنا أربع سنين أيام الدراسة! مش مبرر للحرام يا علي.

- سيبك منى أنا، إيه النوم دا كله؟ انت نايم من امبارح..

- غصب عني، الطريق كان طويل وكنت تعبان أوي.

- المهم قوم دلوقتي اتسبح وأنا هجهزلك الفطور عشان تلحق معادك في الجرنان.

أخرج حسين نوتته الصغيرة ونظر إلى الساعة في يده ثم دون:

«الساعة الثانية عشرة ظهرًا، بداية يومي الأول في الجريدة».

***

ارتدى حسين بدلته السوداء الأنيقة، وحمل حقيبته الصغيرة ثم توجه إلى الشارع الرئيسي. نظر حوله، فوجد بعض وسائل الموصلات العامة قد تكدَّس الناس حولها، لفت انتباهه سيارة بيضاء متوسطة الحجم يجلس بعض ركابها على النوافذ الخلفية، نظر في حزن إلى بدلته الأنيقة، ثم وضع يده على محفظته الصغيرة وأشار إلى سيارة أجرة حتى لا يصبح مصيره مثل هؤلاء. بمجرد أن أشار بيده، توقفت عجلات سيارة تاكسي سوداء دلف إليها حسين.

مر من الوقت ما يقرب ربع الساعة، حتى توقف أمام مبنى ضخم، اتخذ حسين من درجات السلم سبيلًا للوصول إلى المصعد، ضغط زر الاستدعاء ودلف إلى الداخل، وتوقف في الطابق المنشود، مقر عمله الجديد. دلف إلى مكتب رئيس التحرير بعد أن استغرق انتظاره ما يقرب من الساعة والنصف، نظر إلى أرجاء المكتب والمكتبة العظيمة من خلف رئيس التحرير وتمعن في الأشكال الزخرفية المرسومة

على الجدران، ثم نظر إلى المكتب الخشبي ليقرأ اللافتة الموضوعة أمامه في صمت:

«أ/شريف سالم رئيس التحرير».

يجلس شريف ذو الأربعين عامًا صاحب الشعر الأبيض، أو بالأحرى ما تبقى منه، يرتدى قميصًا أبيض اللون يتصل بحمالات بنيه لسرواله الأزرق، ويحتل وجهه شاربٌ رفيع ونظارة طبية كبيرة. يقلب في الأوراق أمامه على المكتب ثم وجه نظره إلى حسين قائلًا:

- أهلًا وسهلًا حسين.

فعقب حسين في استحياء:

- أهلًا بحضرتك يا فندم.. والله دا شرف عظيم ليا إني أقابل حضرتك.

- ها يا بطل، مبسوط إنك هتبقى معانا؟

- طبعًا يا فندم، إن شاء الله هكون عند حسن ظنك.

- أكيد أكيد.. قولي اشتغلت فين قبل كدا؟

ابتسم حسين وهو يتحدث عن خبراته السابقة في مجال الصحافة، فهو يجد ذاته حين يتحدث عنها:

- أنا عملت تحقيقات عظيمة يا فندم ونشرتها في بعض المجلات، بس ما كانتش مرئية للأسف بشكل كافي.

- إزاي بقى! أمال إحنا عرفنا شغلك منين؟

- معقوله حضرتك قريت شغل ليا!

- طبعًا.. استنى..

أخرج شريف بعض الأوراق من درج مكتبه الكبير، ثم وضعها أمامه وعدل من وضع نظارته:

- عندك هنا يا سيدي تحقيق الفنانة اللي قتلت جوزها، تحقيق عن عصابة خطف الأطفال، وكمان أهمهم آهو العيال اللي بيعبدوا الشيطان دول.

- شرف كبير ليا والله يا فندم.

- عشان كدا يا بطل انت هتبقى في قسم التحقيقات عندنا.

- بجد؟!

- طبعًا، لازم أستغل خبرتك وشغفك الجميل دا، وفي القاهرة هنا مافيش أكتر من الجرائم الغريبة، وكمان انت بالذات هتساعدنا في التحقيق اللي جاي.

- واشمعنا أنا بالذات؟

- هتعرف كل حاجة في وقتها.

- أوعدك إني هشرفك يا فندم.

- تمام، يلا بينا وأنا هفهمك وإحنا رايحين مكتب التحقيقات.

نهض شريف متجهًا إلى باب المكتب، فهمَّ حسين معه. فتح الباب ليتجولا في الممرات معًا، نظر حسين متفحصًا المكاتب من حوله،

الجميع مُنكبّون على صفحات الجرائد والكتابة، أخرج حسين مفكرته الصغيرة ودوَّن بها:

«بداية تحقيق الحلم...».

توقف شريف أمام مكتب صغير، فتح بابه ليجده فارغًا تمامًا، بحث بعينه عن أي شخص موجود، فلم يجد أحدًا، كان مكتبًا صغيرًا، كتب على بابه بخط أسود «قسم التحقيقات»، به مكتب واحد فقط لا تستطيع رؤيته من كم الأوراق المبعثرة يمينًا ويسارًا. نظر حسين إلى أحد الكراسي، أزاح من عليه بعض الدفاتر المتهالكة ودعا شريف للجلوس، وقام بالمثل على كرسي خشبي آخر متهالك كاد يسقط حين جلس عليه. تحدث شريف قائلًا:

- ده بقى هيبقى مكتبك يا بطل.

لم يبدِ أي مظهر من مظاهر الفرحة، ولكنه اكتفى بنصف ابتسامة. سرعان ما انفتح باب المكتب دون سابق إنذار لتدلف منه شابة ثلاثينية، ذات شعر أسود فاحم، متوسطة القامة ويبدو الانفعال واضحًا على وجهها، فانتفض شريف وتحدث في غضب واضح:

- انتِ فين يا أستاذة وسايبة مكتبك ليه؟

- أنا آسفه يا أستاذ شريف، بس الموضوع مش سهل زي ما حضرتك فاكر.

- هيكون إيه اللي حصل يعني؟

- أنا برفض المأمورية اللي حضرتك مكلفني بيها.

- انتِ اتجننتِ؟ دا شغل.. وأنا بقولك عازمك على العشا!

- ده انتحار، أنا مش هدخل البيت دا.

- يبقى خلاص، تروحي تكتبي في صفحة المطبخ تفهمي الستات إزاي يطبخوا لأجوازهم وسيبي صفحة التحقيقات للي يستاهل.

شعر حسين أنه يجب أن يتدخل ليهدئ من حده الموقف:

- اهدى يا أستاذ شريف، أنا ممكن أساعد.. بيت إيه وتحقيق إيه؟

نظرت له منة في امتعاض شديد قائلة:

- حضرتك مين؟!

- أنا حسين علام، زميل حضرتك الجديد في قسم التحقيقات وكمان أنا هساعـ...

قاطعته منة بانفعال قائلة:

- آه.. انت بقى العلامة اللي جايبينه يعلمني الشغل!

نظر لها حسين في استغراب شديد، فعقَّب شريف:

- على الأقل شغله مختلف وما بيخافش ومقالاته مبهرة.

ثم تحرك شريف ليقف أمام الاثنين قائلًا:

- اسمعي يا منة، بيت المقدم سميح لازم تخشيه وتتكلمي معاه.

- يا فندم هو أصلًا رافض يقابل الصحافة، أنا هعمل دا إزاي؟

- أكيد ليكِ طرقك يا أستاذة!

تحدث حسين بنبرة هادئة:

- ما تقلقش يا أستاذ شريف، إن شاء الله هنقدر نتكلم معاه.

- هنقدر!!

قالتها منة رافعة حاجبيها.

- ما إحنا بقينا فريق واحد دلوقتي.

نظرت منة إليه في استنكار شديد ثم نظرت إلى شريف قائلة:

- بعد إذنك يا أستاذ شريف أنا مضطرة أمشي دلوقتي.

توجهت إلى باب المكتب وأدارت المقبض الحديدي، ثم أغلقته مرة أخرى ووجهت نظرها إلى حسين وسألته:

- هو انت اسمك حسين إيه؟

- حسين علام.

نظر كلٌ من منة وشريف إلى بعضهما البعض، وعقب شريف مسرعًا:

- انت تقرب للمقدم سميح علام؟

تغيرت ملامح وجه حسين وأشاح بنظره عنهما قائلًا:

- ما دا اللي أنا بحاول أوضحه بس انتِ مش مدياني فرصة. سميح علام يبقى ابن عمي.

ابتسم الاثنان ثم أغلقت منة باب المكتب وعادت لتجلس أمام

حسين.

***

القاهرة، عام 2020..

ظهر من الظلام متشحًا بالسواد، وممسكًا عصا كبيرة متصلة بالجهاز المحمول على ظهره، ويرتدى قناعًا يخفي وجهه بالكامل، وتحتل فتحتان دائريتان بشكل مدبب جانبي القناع. أخذ رجل التطهير يتجول في أرجاء سجن العقرب حتى وصل إلى الممر الذي يحمل بين طياته زنزانة 55، بدأ الرجل ينثر المطهر في محاولة منهم لحصر العدوى بمرض كورونا، ولكن دون جدوى، فلقد أصبح السجن -أو تحديدًا العنابر في ذلك الممر- بمثابة حجر صحي لحاملي العدوى داخل السجن من سجناء وقادة.

أكمل الرجل خطواته البطيئة في حذر شديد، فالرؤية تكاد تكون معدومة داخل الممر، شعر برياحٍ باردة تجتاح المكان، وأصبحت الرؤية واضحة ولكن لون الإضاءة كان شديد الحمرة.

في بداية الأمر، ظن أنه يعاني من دوارٍ ما بسبب القناع على وجهه، ولكن الأرض من أسفله كانت تدور، ظلت تدور وتدور حتى اختل توازنه وسقط أرضًا. اجتاح الرعب قلب الرجل ونهض مسرعًا يحاول الوصول إلى السلم الذي أتى منه، ولكنه لم يجده. هدأت حركة الأرض من تحته، ثم سمع صوتًا يشبه البكاء، تتبع مصدر الصوت ليجده يجلس باكيًا منزويًا خلف أحد الأعمدة، طفل صغير موليًا له ظهره، ويداه مُكبلتان. علا صوت نحيبه حين اقترب منه الرجل، ربَّت

الرجل على كتفِه في محاولة منه لتهدئته وبث الطمأنينة قليلًا في قلبه، وأخبره أنه لن يؤذيه.

أدار الطفل رأسه بهدوء شديد لينظر إلى الرجل المقنَّع، فصرخ الرجل وابتعد للوراء ساقطًا حين رأى وجهه فارغًا تمامًا إلا من عين سوداء مجوفة، أراح الطفل رأسه إلى الوراء ليسمع المقنع صوت طقطقة العظام، فتلامس الرأس الأرض وما زالت يد الطفل مكبلة من الخلف. زحف الطفل برأسه تجاه المقنع الذي علت صرخاته وتحولت إلى بكاء، تسارعت خطوات الطفل وقفز عاليًا ليستقر فوق صدر المقنع. بدأت عظام الطفل في الطقطقة مرة أخرى وحجمه تضاعف تدريجيًا وطالت أظافرة وأطرافه معًا، لتجحظ عين المقنع حين رأى أمامه كيانًا كبيرًا ذا عين سوداء مجوفة ويد طويلة يكسوها الشعر. وقد علم أنها نهايته حين رفع الكيان يده في الهواء ووجها إلى وجه المقنع لتخترق أظافره الطويلة وجهه وتفقأ عينيه.

لم يحرك الرجل ساكنًا بعدها وهدأت جميع الأصوات، وكأن الكون حانت نهايته، وانطفأت الإضاءة الحمراء وعادت كشافات الإنارة إلى طبيعتها، وفُتحت زنزانة 55 ليخرج منها رجلٌ متكئ على عصاه، ويقف أمام الكيان وينظر له بإعجاب شديد، ثم تحرك لينظر للرجل المقنع ويزيح القناع ويرى ما فعل به الكيان. فيعود بنظره مرة أخرى للكيان ويحاول أن يثني ركبتيه ليخر راكعًا أمامه ويتحدث قائلًا:

- سيدي، سأعيد لك قوتك قريبًا لتحكم عالمنا، ولكن لا تنسَ وعدك لي!

رد عليه الكيان بصوتٍ غليظ تقشعر له الأبدان:

- حسين علام.. لن يكتمل شيئًا دون حسين.

- قريبًا يا سيدي. والآن أتركك لتستمتع بعشائك.

ابتعد قليلًا لينظر الكيان للجسد أمامه فيرتفع في الهواء ويحرك الكيان وجهه لأعلى، ويبدأ بالصراخ بوجهه المجوف، بينما يخرج غبار أسود من جسد الرجل المقنع وينتقل إلى الكيان.

***

يجلس حسين مشعلًا لفافة من التبغ بعد أن سمح له شريف، أما منة فكانت تنظر له في انتظار أن يتحدث بما يعرفه عن سميح علام. مر من الوقت ما يقرب النصف ساعة، ولم ينبس ببنت شفة، فتحدثت منه قائلة:

- بقى سميح اللي مجنن الناس كلها ابن عمك!

- أستاذة منة، أنا مش جاي آخد مكان حد هنا، أنا عايزك تفهمي دا قبل أي حاجة.

كانت نبرته تحمل الكثير من الإحراج، ثم تابع:

- أنا ماكنتش عايز أول يوم يبقى ليا كدا.

فعقب شريف قائلًا:

- يا حسين، انت لازم تساعدنا نقابله، مش هقولك دا مرتبط بتعيينك هنا، ولكن ساعد زمايلك حتى!

- أوعدك إني هحاول.. لكن إدوني فرصة أرتب أموري.

- أكيد.. في انتظارك.

نهض حسين من أمام منة، خرج من باب المكتب وقد شعر بصداع خفيف يجتاح رأسه، ثم خارت قواه ليسقط أرضًا.

أما في مكتب التحقيقات وبمجرد خروج حسين، تحدث شريف قائلًا:

- فيه لغز في الموضوع ولازم أكتشفه.

- ماتقلقش، أنا هعرف كل حاجة، ومش هسيبه إلا لما يوديني بنفسه لسميح.

قطع حديثهما صوت طرقات على الباب، ليدخل عامل البوفيه يخبرهم بسقوط حسين أرضًا أمام المكتب. هرولا مسرعين ليجدا حسين على الأرض ويداه الاثنتان ملتويتان تجاهه، يضم كفيه إليه وقد أصابته حالة من التشنجات، ويسيل بعضٌ من لعابه على قميصه المزركش.

دون أي تفكير توجهت منة غليه لتمسك جسده وتحاول ان تبعد لسانه، وتفحصته جيدًا فصرخ بها شريف:

- انتِ بتعملي إيه؟ كلموا الإسعاف.

- دي نوبة صرع يا شريف.

أمسكت جسده بحذر شديد بعد أن طلبت المساعدة من شريف.

- نيمه على جنبه معايا وما تضغطش عليه.

بدأت في فك الأزرار حول عنقه لتساعده على التنفس بشكلٍ أفضل، ثم صرخت قائلة:

- خلوا فيه مساحة أكتر.. وسعوا من هنا.

نفذ الجميع الأمر وقام عامل البوفيه بفتح الشباك الصغير في الممر، وظلت هي تحاول تهدئته حتى استقر وبدأ يتنفس بشكلٍ طبيعي. نهض حسين بمساعدة منة وشريف ليجلس على أحد الكراسي، نظر إلى الجمع الذين ينظرون إليه بدورهم، فشعر ببعض الحرج، مسح لعابه السائل بيده ثم حاول أن يجاهد نفسه في النهوض، ولكن لم يستطع، فنهته منة عن ذلك قائلة:

- رايح فين؟ ارتاح شوية الأول!

- أنا آسف ماكنتش عارف إن دا هيحصل.

- هتبقى كويس ما تقلقش.. دواك فين؟

قالتها متساءلة.

- في جيبي.

أخرج علبه دواء صغيرة والتقط منها حبة واحدة وتجرعها بكأس صغيرة من الماء أحضرها عامل البوفيه مسبقًا، ثم تكلم شريف قائلًا:

- بس انتِ عرفتِ إزاي إن دي نوبة صرع؟

فتحدثت منه دامعة:

- والدتي الله يرحمها كان عندها صرع وأنا اللي كنت مسؤولة عنها.

نهض حسين مبتسمًا ووجه كلامه إلى شريف قائلًا:

- طبعًا أنا كدا مش هستلم وظيفتي!

- يا راجل ليه بتقول كدا؟ عشان تعبك يعني؟ ده أنا شغال مع مجانين ومستحملهم.

ابتسم الجمع ثم تابع شريف:

- روح ارتاح دلوقتي وبكرة آجي ألاقيك قاعد على مكتبك.

- انت ساكن فين؟

تساءلت منة.

- رمسيس.

- حلو هوصلك في طريقي.. تعالى.

- مش عايز أتعبك.. أنا هاخد تاكسي.

- يعم انت تطول أوصلك.. يلا بينا.

تحرك الاثنان وابتسم حسين وقد شعر بلطف وحنو تلك الفتاة، وأنها تظهر عكس ما بداخلها تمامًا.

توقف الاثنان أمام المصعد، وضغطت منة على زر الاستدعاء، وحين وصل وفتح الباب نظر حسين ليجد طفلًا صغيرًا موليًا لهما ظهره. دلف الاثنان وضغط حسين على زر الهبوط، فتحدث موجهًا

كلامه إلى الطفل الصغير مداعبًا إياه:

- مالك زعلان ليه كدا؟

نظرت منة إليه في استغراب شديد ثم قالت:

- انت بتكلم مين؟!

- بكلم الولد اللي واقف مدينا ظهره جنبك دا.

نظرت منة إلى جوارها ثم عادت بنظرها له مرة أخرى وقالت:

- انت شكلك لسه تعبان، مفيش حد غيرنا في الأسانسير!

رفع حاجبيه ثم عاد يؤكد لها وجود طفل صغير بجوارها، وهي تنكر ذلك، ثم صمت الاثنان لبرهه وقال حسين بعد أن امتعض وجهه:

- هو إحنا ليه ما وصلناش دا كله وإيه الريحة الوحشة اللي في المكان دي؟

نظر إلى الطفل الصغير، فوجده يحرك رقبته ببطء شديد لينظر إلى حسين بعين سوداء مجوفة، فعاد الأخير إلى الوراء وقد جحظت عيناه. أما منة فقد صرخت صرخة مدوية حين ازدادت سرعة هبوطهم فجأة وانقطعت الإضاءة عن المصعد تمامًا.

علي علام

داخل محل نعمان العطار، يجلس رجلٌ يرتدي جلبابًا بني اللون وعمامة مزركشة بألوانٍ متداخلة، وتتدلى كوفية من الصوف على جانبي صدره. بشرة سمراء وملامح غليظة يتمتع بها وجه الحاج نعمان، بجانب شارب أبيض كث ويد كبيرة بها وشم صعيدي أزرق، يحكم قبضته على شيشته ثم يسحب نفسًا طويلًا ويزفر به، لتتكون سحابة زرقاء وتخرج مداعبة شاربه الغليظ.

انتابه السعال ثم بصق على الأرض وعاد بنظره مرة أخرى إلى علي الواقف أمامه مستندًا بظهره إلى إحدى الجوالات. دلفت إلى المحل امرأة أربعينية ترتدي عباءة سوداء تظهر أكثر مما تخفي، فهمَّ علي واقفا حين رآها. جسدها ممشوق، تتمتع ببشرة ناصعة البياض، عيونها سوداء ورموشها مكحلة لتزيد من اتساعها فتضفي على جمالها جمالًا. اقتربت من علي قائلة:

- إزيك يا علي؟ جهزت لي الحاجة؟

- وإحنا نقدر نتأخر يا ست الكل! بس فين المعلوم؟

- موجود.

مدت يدها داخل صدرها، فزاغت عين علي وزم شفتيه، فبادلته بابتسامة وهي تلوك علكتها، ثم أخرجت كيسًا أسود صغير، وأعطته لعلي، ثم تحدث الأخير وهو يعيطها كيسًا مماثلًا:

- اتفضلي يا ست الكل.

ثم تلفت يمينًا ويسارًا، وتأكد أن الحاج نعمان أشاح بنظره بعيدًا عنهما، وقال بنبرة هادئة تكاد تشبه الفحيح:

- بصي، دا تحطيله منه معلقة واحدة في كوباية الشاي وهتدعيلي بعدها.

- أما نشوف فيه حاجة هتحوق فيه ولا لأ.

ثم جاءهم صوت الحاج نعمان غليظًا مسموعًا:

- إيه الحكاية يا علي؟ فيه مشكله مع الزبونة؟

أجاب علي متوترًا وأشار لها بعينه أن تذهب:

- لا سلامتك يا حاج، دي بتسأل على البهارات وقلتلها ناقصة هنجيب منها بكرة.

- وماله. قولي ابن عمك فين أراضيه دلوقتي؟

- ابن عمي مين؟

- الباشا الظابط.. سميح.

انعقد حاجباه وتجهم وجهه ثم قال:

- وانت إيه اللي فكرك بيه؟

نهض نعمان متكئًا على عصاه، واقترب من علي هامسًا:

- أصل كانت فيه مصلحة قدامي وقولت يخش معايا فيها.

- ويا ترى مصالح إيه اللي بينكم؟

- ما تشغلش بالك انت.. هو فين مكانه؟

- ساب الخدمة يا حاج.

- سابها!

قالها متعجبًا.

- آه.. قالوا عليه اتجنن ومابقاش ينفع في الداخلية. بس أنا سداد يعني.

تعالت ضحكات نعمان وهندم شاربه بيديه ثم ربت على كتف علي قائلًا باستهزاء:

- انت لسه صغير على الشغل دا.

- صغير!

قالها مستنكرًا:

- أمال.. لسه عضمك طري. يلا.. أنا همشى عشان أروح أتغدى وانت ابقى اقفل وروح اتغدى انت كمان.

امتعضت ملامح وجه علي وهو ينظر إلى نعمان ويتابع خطواته خارجًا من باب محل العطارة، ثم تحدث قائلًا:

- انت ورايا ورايا يا سميح! بس هانت.

أخرج زفيرًا حانقًا ثم بدأ يرفع بعض الجوالات من الخارج ليسكنهم داخل المحل، حمل جواله الأول على كتفه ودلف إلى الداخل، ولكن انقطعت الإضاءة فجأة، فتعثر في الظلام وخر واقعًا

أرضًا. نهض متألمًا ممسكًا بذراعه، ثم اجتاحت المكان رائحة غريبة وأصبحت الرياح أكثر برودة. خرج ليقف أمام باب محل العطارة ناظرًا إلى الشارع، ليجد أن الإضاءة قد انقطعت في محل نعمان العطار فقط.

ما لبث أن رجع مرة أخرى إلى المحل، حتى سمع صوت زمجرة قادمة من الداخل، ابتلع ريقه ثم بحث بعينيه عن مصدر الصوت، ولكنه لم يجد شيئًا، وسرعان ما عاد الصوت مرة أخرى وخيِّل إليه أنه رأى شيئًا ما يتحرك بالداخل على الضوء الخافت البسيط القادم من عواميد الإنارة في الشارع. تحول صوت الزمجرة إلى صوت خشخشة، مال بأذنه إلى داخل المحل ليسمع الصوت الذي علا فجأة وكأن شيء ما يتحرك ويتخبط بالجوالات والفتارين.

هنا، وعلى ضوء الأعمدة، خرج وجهه من الظلام مشوهة، ذو عين مجوفة، ليقترب من أذن علي. وحين التفت الأخير عاد الوجه إلى الداخل وعادت الإضاءة معه.

تنهد علي ثم بدأ في نقل باقي الجوالات، وأغلق المحل، وهمَّ بالانصراف حين ظهرت سيارة فاخرة سوداء تمامًا، تتقدم نحوه. توقفت أمامه ثم ترجل منها شاب صغير يرتدي بذله أنيقة فاخرة وحذاء أسود، بشرته بيضاء لامعة، تحدث بصوت رخيم قائلًا:

- أستاذ علي علام، أنا جايلك من طرف ابن عمك.

اندهش علي قائلًا:

- ابن عمي مين؟

- سميح علام.. هو محتاج يقعد معاك.

- سميح عايزني أنا؟ طب هو ماجاش ليه؟

- للأسف الباشا ما بيخرجش من البيت الفترة دي.

- أمال انت مين؟

ابتسم الرجل ومد يده البيضاء يصافح علي قائلًا:

- اسمي داسم، المسؤول عن سميح باشا.

فقال علي مستهزئًا بعد أن مد يده مصافحًا إياه:

- وهو الباشا اتجنن فعلًا ومابقاش يقدر يبقى مسؤول عن نفسه؟

تعالت ضحكات علي بعد جملته الأخيرة وابتسم داسم، ثم تحولت تلك الابتسامة لامتعاض وغضب شديدين، وأحكم قبضته على يد علي، فصرخ الأخير متألمًا، ثم حاول داسم أن يعيد الابتسامة لوجهه مرة أخرى وترك يد علي قائلًا:

- سميح باشا عايزك في شغل، وبالمناسبة هو مش مجنون.

دلف الرجل إلى سيارته ثم قال:

- بكرة الساعة 6 الباشا في انتظارك.. يا ريت ما تتأخرش.

انطلق داسم، وظل علي مشدوهًا بفخامة السيارة وهو يتابعها حتى تورات عن الأنظار. شعر بألمٍ في يده اليمنى، فنظر إليها ثم عاد بنظره إلى السيارة وابتسم.

***

انقطعت الإضاءة عن المصعد، فصرخت منة صرخة مدوية وأمسكت بيد حسين، ثم عادت الإضاءة مرة أخرى وانفتح باب المصعد ليجدا أنهما ما زالا في نفس الطابق، تفحص حسين المصعد جيدًا باحثًا بعينه عن الطفل الصغير، ولكنه لم يجده.

خرجا من المصعد واتخذا السلالم، وحاول حسين أن يُطمئن منة على قدر المستطاع حتى هدأت قليلًا، أما هو فقد أشعل لفافة من التبغ وقد وصل إليهم شريف في الدور الأرضي الخاص بمبنى الجريدة يتصبب عرقًا وقد هرب الدم من وجنتيه، يبدو شاحبًا قليلًا، وقال بنبرة مرتعشة:

- انتوا إيه اللي حصلكم؟!

تحدثت منة قائلة:

- ماتقلقش يا أستاذ شريف، ابقى بس بلغ الناس تعمل صيانة للأسانسير.

انعقد حاجبا شريف قائلًا:

- يا جماعة انتوا أصلًا ما دستوش على زرار النزول!

نظر الاثنان في تعجب شديد إلى بعضهما، وعقَّب حسين:

- إزاي؟ أنا متأكد إني ضغطت على الزرار!

- آه يبقى إحنا فضلنا جوا لحد ما النور فصل علينا، عشان كدا ما

اتحركناش!

- طب والطفل الصغير؟!

قالها حسين عاقدًا حاجبيه ناظرًا لهما في انتظار إجابة، فزمت منة شفتيها ضاغطة على كلماتها الخارجة قائلة:

- انت واضح إنك لسه تعبان.. مافيش حاجة؟

- طفل إيه اللي بيقول عليه؟

- مفيش حاجة يا أستاذ شريف.. روح انت تابع الشغل.

- عندك حق.. خلوا بالكم مش هتخشوا من الباب دا تاني إلا وانتوا معاكم التحقيق بتاع سميح علام.

- أكيد أكيد..

أدار شريف ظهره لهم عائدًا إلى السلالم ثم نظرت منة إلى حسين قائلة:

- مش عايزك تبيّن إن قلبك ضعيف كدا، انت ناسي إنه عارف إنك قريب سميح الملبوس!

- سميح الملبوس!

قالها بنبرة حانقة فاعتلت علامات الاستحياء وجه منة وقالت معتذرة:

- أنا آسفة.. بس هما كلهم بيقولوا عليه كدا.

- ولا يهمك، انتِ راكنة فين؟

- قدام الباب على طول.

توجه الاثنان إلى سيارة منة، كانت سيارة رمادية اللون من الذي يطلق عليها «شاهين» متهالكة إلى حدٍ كبير. توقفت منة أمام الباب الخاص بالسائق، قامت بفتحة بسهولة شديدة أما الباب الآخر. ظل حسين يحاول ويحاول حتى استجاب لقوته العضلية بعد المرة العاشرة وأدارت منة سيارتها متجهة إلى منزل حسين.

***

توقفت عجلات السيارة أمام المقهى القابع أسفل منزلهم، ترجل حسين من السيارة وتحدث شاكرًا:

- أنا مش عارف أشكرك إزاي يا منة والله؟

- لا شكر على واجب. المهم بكرة لازم نشوف هنقابله إزاي.

- أكيد.. بس خلي بالك، أنا وهو بقالنا فترة ما بتنكلمش.

- هو إيه الحكاية؟

قالت متساءلة:

- الحكاية دي من زمان أوي هيجي يوم وهحكيهالك.

أدارت السيارة مرة أخرى، وتوجهت خارجة من الحي. بحث حسين بعينه عن علي ليجده جالسًا شاردًا، تقدم إليه وجلس أمامه ولم يُحرك الأخير ساكنًا، انعقد حاجبي حسين ثم تحدث:

- إيه يا ابني مش شايفني ولا إيه؟

- لا مؤاخذة يا حسين، سرحان شوية.

- إيه مالك؟

- شكلنا داخلين على وجع قلب.

- فيه إيه؟

- سميح علام ابن عمك..

رفع علي حاجبيه وتساءل:

- هو جه هنا؟

- لا، بس بعت لي مرسال إنه عايزني في حاجة ضروري.

- بعتلك مين؟

- واحد كدا اسمه داسم بيقول إنه مسؤول عنه.

عاد حسين إلى الوراء وأراح ظهره على الكرسي الجالس عليه، وعقد كفيه ساندًا رأسه عليهما ثم تحدث قائلًا:

- الغريب بقى يا علي إنه أول يوم شغل ليا يبقى مطلوب أعمل تحقيق عن سميح علام الظابط الخارق للطبيعة.

رفع علي حاجبيه متعجبًا ثم قال:

- خارق للطبيعة! والله ما أنا فاهم حاجة.

اعتدل حسين في جلسته واقترب من علي متساءلا:

- ما تقولي يا واد عمي، الفترة اللي أنا رجعت فيها البلد من بعد الكلية لحد ما جيت، إيه اللي تعرفه عن ابن عمك؟

- والله يا حسين أنا شوفته مرة واحدة بس كان ما شاء الله بصحته عكس ما بسمع عنه دلوقتي إنه استقال وساب الداخلية وبقي منعزل في بيته ومريض.

توقف علي عن الكلام حين وقعت عينه على منة وهي تقف أمام المقهى وتتلفت يمينًا ويسارًا، حتى وقعت عينيها على حسين جالسًا، فتقدمت مبتسمة غلى مكان جلوسه، فسحب علي نفسًا من شيشته ثم خرج الكلام مختلطًا بالدخان الأزرق:

- إيه الحلويات اللي في حتتنا دي؟

أدار حسين رأسه فوجد منة قادمة، فهمَّ واقفًا ثم مال برأسه تجاه علي قائلًا:

- لم نفسك دي زميلتي في الشغل.

- يا عم عشان خاطرك حاضر.

تقدَّم حسين وبادر بالترحاب بها ثم قال علي:\

- اتفضلي يا أستاذة. يا أهلًا بالصحافة.. هات سحلب يا كماشة.

فرفضت قائلة:

- لا شكرًا، أنا بس جاية آدي حاجة لحسين، وماشية على طول.

عقد حسين حاجبيه وتساءل متعجبًا:

- حاجة إيه؟!

مدت منة يدها إلى حقيبتها الكروس المعلقة على كتفها الأيسر، وأخرجت مفكرته الصغيرة. فالتقطتها حسين سريعًا متلهفًا دون تردد وتحدث قائلًا:

- متتخليش كنت هزعل إزاي لو كانت ضاعت!

- أنا لقيتها واقعة عندي في العربية قولت أجيبهالك.

كان علي قابعًا في مكانه ينظر إليهما ببلاهة واضحة وابتسامة خرقاء، فانتبه حسين إلى وجه ابن عمومته، فبدأ الكلام قائلًا:

- نسيت أعرفك علي ابن عمي.. أستاذة منة زميلتي في الجريدة.

- أهلًا وسهلًا يا أستاذ علي.

أغمض عينيه متصنعًا وقال:

- يااااه! أستاذ! أول مرة حد يحترمني.

ابتسمت منة ثم تابعت كلامها:

- أنا لازم أمشي. ماتنساش بكرة عايزين ناخد معاد من سميح علام.

رفع علي حاجبيه مشدوهًا ثم تحدث:

- انت كمان عايز تروح لسميح؟ طب ما تيجى معايا بكرة الساعة 6!

قالت منة بعد أن سحبت كرسيًا من وراءها جالسة:

- انت ممكن تيجي معانا؟

- ابن عمي عايزنيى في شغل، هو اللي طلبني.

جلس حسين هو الآخر ووجه كلامه إلى علي:

- بما إننا إحنا التلاتة رايحين بكرة لبيت سميح، يبقى لازم يا علي تفهمني إيه اللي تعرفه عن سميح قبل ما أنا أروح له.

اعتلت وجه علي ملامح الجدية وترك لَي شيشته قائلًا:

- أنا هحكيلك كل حاجة لما جيت القاهرة هنا.

***

القاهرة، عام 1994..

جاء منتصف الليل معلنًا الصمت والهدوء التام في شوارع القاهرة، الرياح عاتية تصدر صريرًا إثر احتكاكها ببواقي أكياس القمامة المبعثرة أرضًا، قطط الشارع الضالة تصدر مواءً يخيف الفئران الصغيرة فتفر هاربة إلى جحرها الخفي، أعمدة الإنارة تبث ضوءًا ضعيفًا لا يسمن ولا يغني، شعاع بسيط لا جدوى من وجوده، تزداد سرعة الرياح فيحاول علي علام السائر الوحيد في ذلك الشارع المظلم أن يلملم شتات نفسه ويعقد يديه ضامًا إياهما إلى صدره في محاولة للشعور ببعض الدفء.

تلفت يمينًا ويسارًا ليطمئن من عدم وجود أحد حوله، وأخرج من جيبه الصغير مشطًا من الكبريت ولفافة تبغ كبيرة، وقام بإشعالها وتلذذ بدخانها ورائحة نبات الحشيش. ما لبث أن تقدم بضع خطوات

للأمام حتى لمح سيارة شرطة تتقدم تجاهه. ارتبك علي ولم ينجح في إلقاء اللفافة غير الشرعية في يده أو يخفيها، توقفت السيارة أمامه واحتكت العجلات الأربع بالأرض لتترك أثرًا واضحًا. وإذ بشخصين ضخمي البنية يقفان وراءه لا يعلم من أين أتوا.

ترجل من السيارة رجلٌ ضخم مرتديًا زيه الميري، توقف أسفل أحد أعمدة الإنارة الضعيفة وأشار بيده للرجلين خلف علي أن يأتوا به، فنفذ الاثنان الأمر دون تردد، أمسك الرجل على يمينه ساعده الأيمن والرجل الآخر أمسك بياقة معطفه من الخلف فتمزق من قوة قبضته، وشعر علي في تلك اللحظة أن الشتاء قد انتهى وازدادت درجة حرارة جسده وبدأ يتصبب عرقًا، صدره يعلو ويهبط بشكل متسارع.

اقتربا به من مكان وقوف الرجل الضخم، فاتضحت ملامحه لعلي قليلًا، وجه غليظ، شارب أسود فاحم كث، بنيان ضخم، عضلات صدره تكاد تخرج لتحرر نفسها من ضيق القميص الميري. ابتلع علي ريقة بصعوبة شديدة بعد أن نظر الرجل إلى لفافة التبغ التي ما زالت قابعة بين إصبعيه، أمسك يده وأحكم قبضته عليها، فتألم علي، أخرج الرجل اللفافة من بين يديه ثم دقق بها جيدًا، وقربها من أنفه، فابتسم وتحدث بصوت رخيم ونبرات ثابته واثقة:

- حشيش!

جاء صوت علي مرتعشًا خائفًا:

- والله يا باشا أول وآخر مرة.

فتحدث الضابط قائلًا:

- أكيد آخر مرة.. قولي انت جاي منين؟

تعجب علي من هدوء الضابط فتحدث مترددًا:

- كنت بتمشى عادي والله يا باشا.

- حد يتمشى في السقعة دي؟

وجه الضابط نظره إلى الشخصين خلف علي وأمرهما بتفتيشه، فأخرج الرجلان كل ما يحويه جيب علي دون أدنى مقاومة من الأخير، أمسك أحد الرجلين ببطاقة هويته ثم أعطاها للضابط، نظر لها وجحظت عيناه حين وقعت على الاسم، ونطق به بصوت مسموع:

- علي جابر علام!

- خدامك يا باشا..

فتعالت ضحكات الضابط واحتضن علي بلهفة، فعقد الأخير حاجبيه وهو يسمع كلام الضابط:

- خدام مين ياض يا علي انت مش عارفني؟

- ما تآخذنيش يا باشا بس مش واخد بالي!

- تاني هيقولي باشا! أنا سميح علام.. ابن عمك.

فتح علي فاهه مشدوهًا، وقال بنبرة ضاحكة:

- يا ابن اللذينة! بالحضن يا ابن عمي..

احتضن ابن عمومته متلهفًا، ثم أمسك سميح بتلابيب علي بعد أن تغيرت ملامح وجهه وقال صارمًا:

- خدوه على البوكس.

- بوكس إيه يا سميح بالله عليك!

تعالت ضحكات سميح مرة أخرى حتى كاد يبكي:

- ما تخافش بهزر.. خلاص سيبوه.. أنا هعديهالك المرة دي بس عشان انت واحشني.

- انت أكتر يا ابن عمي والله.

- طب تعالى نقعد نشرب حاجة في أي حتة ونتكلم شوية.

تقدم الاثنان إلى سيارة الشرطة بعد أن طلب سميح من السائق أن يترجل، ثم تولى هو عجله القيادة وعلي بجانبه، حتى وصلا إلى مقهى صغير يظل مفتوحًا في تلك الساعة المتأخرة. بمجرد دخول سميح للمقهى فزع الأشخاص الجالسون فنظر سميح للرجل الواقف على خدمة الناس وأمره أن يأتي له بكرسيين في مكانٍ بعيد عن جلوس الأشخاص الآخرين. جلس الاثنان بعد أن طلبا كوبين من الشاي الثقيل، ثم تحدث سميح قائلًا:

- طمني، أخبارك إيه وأخبار البلد إيه؟

- الأخبار ما تسرش، أنا هنا بقالي يومين بدور على شغل ومفيش

أي حاجة.

- دا بقى اللي بيخليك تحشش؟

- من الزهق يا ابن عمي والله.

- يا عم ما تشيلش هم، أنا هشغلك ومن بكرة كمان.

- بجد؟ فين؟!

قالها علي متلهفًا:

- ليا واحد أعرفه فاتح محل عطارة كبير هشغلك معاه.

- ربنا يقدرني وأرد جمايلك يا سميح.

- ما تقولش كدا، دا أنا كبيركم ومسؤول عنكم.

أمسك سميح بكوب الشاي ورشف منه ثم تابع قائلًا:

- صحيح، أمال حسين أخباره إيه؟

- حسين خلص كليته ورجع البلد تاني لقاها مش جايبه همها.

- وحشتوني والبلد وحشتني..

- وانت أكتر يا ابن عمي.

همَّ سميح بالنهوض وقال:

- أنا لازم أسيبك دلوقتي، خلص شايك براحتك وبكرة تعالى على القهوة هنا هستناك وهوديك للحاج نعمان.

نظر سميح للقهوجي ورفع يده يحيه، فبادله الآخر نفس التحية، فقال علي متحمسًا:

- والله ما انت دافع.. اتكل انت على الله.

تعالت ضحكات سميح قائلًا:

- أنا ما ادفعش هنا.. سلام.

تابع علي ابن عمومته ببذلته الميرى الأنيقة وابتسم، ثم رشف رشفة من كوب الشاي خاصته.

***

يجلس كلٌ من حسين ومنة يستمعان لما يروى لهما على فم عليّ علام، حتى قال:

- وبعدها خدني للحاج نعمان، شغلني عنده وشوفته مرتين تلاتة، بس كان فيه حاجة غريبة.

- حاجة إيه؟

قالتها منة.

- في كل مرة كان سميح بيتغير شكله، بيبقى باين عليه التعب، جسمه اللي كان يخش في حيطة يهدها بقى ضعيف جدًا، عينيه كأنه مش شايف بيها.

ثم تلفت يمينًا ويسارًا، ودنا من حسين وتحدث هامسًا:

- ابن عمك ممسوس يا حسين.

- بلاش تخاريف، ممسوس إيه! كل حاجة ليها تفسير منطقي وعلمي يا علي، ولا إيه يا منة؟

لم يأتِه رد من منة بالإيجاب على أفكاره، ولكنها قالت:

- كل حاجة موجودة حتى اللي مش منطقي بالنسبة لك بالنسبة لناس تانيه هو دا المنطق بعينه.

- كل حاجة هتبان وتتعرف بكرة.. يلا أوصلك لعربيتك.

نهضت منة ومعها حسين وخرجا من المقهى إلى السيارة القابعة أمامه، فتح حسين لها الباب ودلفت لتجلس أمام عجله القيادة، كان علي يتابعهما بنظره وسرعان ما شعر بألم في يده اليمنى التي صافح بها داسم. نظر لها فوجد بها وشمًا لنجمة سداسية كتب في وسطها اسم علام، جحظت عيناه من الدهشة وأغلق يده سريعًا حتى لا يراها حسين الذي عاد للجلوس أمامه.

***

سجن العقرب، 2020..

يحاول العسكري التقاط أنفاسه بصعوبة بالغة، صدره يعلو ويهبط، دقات قلبه متسارعة، العرق يتصبب من كل أنحاء جسده، عيناه جاحظة. ما لبث أن اقترب منه أحد أقرانه في محاولة منه لتهدئته وفهم حقيقة ما حدث في الممر الخاص بالحجر الصحي. انتفض العسكري حين لمسه صديقه وبدأ في الصراخ، انتابته حالة من ضيق التنفس، الهواء لا يصل إلى رئتيه. أمسك بيديه رقبته يحاول السعال

ولكن لا يستطيع، نزع ملابسه، بل مزقها حرفيًا ليظهر جذعه عاريًا، بشرته السمراء أصبحت تميل إلى الاحمرار الشديد، ابتعد عنه زميله القابع معه في نفس الغرفة وعيناه جاحظة خائفًا مرتبكًا قلقًا، لا يعرف ما أصاب زميله. فتحدث صارخ بلهجة صعيدية:

- الحقووووني.. الواد باينه اتعدى وجاتله الشوطة هو كمان.

سرعان ما هدأت الأجواء وانقطعت الإضاءة عن الغرفة، وأصبح الاثنان وثالثهما الظلام. الظلام كاحل وهواء بارد لا يعلم مصدره اجتاح المكان على الرغم من خلو الغرفة من أي نوافذ. رائحة عفنة تسللت إلى أنف العسكري الصارخ بالمساعدة، أصوات كثيرة متداخلة من همسات وصرخات وصوت يشبه صوت نباح الكلاب ومواء القطط. صوت قدم شخص ما تسير بخطوات ثابتة، لا، بل عدة أشخاص. مد يده في الظلام يتحسَّس الجدار لكي يصل إلى مقبض الباب، ولكن انتفض جسده وخرت عزيمته وما تبقى من شجاعته حين لامس جسدًا مشعرًا في الظلام.

في تلك اللحظة، عادت الإضاءة إلى الغرفة ليجد صديقة واقفًا بجوار كيان ضخم أسود مقفى العينين مشعر الجسد، جحظت عيناه مشدوهًا وقد شعر بسائل يتسلل من نصفه السفلي، ليظهر علامة داكنة على سرواله، فنظر الكيان إلى سرواله المبلل ثم تحدث العسكري الآخر قائلًا:

- سمعًا وطاعة سيدي.. فلتنعم بوجبتك.

أمسك الكيان بالعسكري واحكم قبضته على رقبته، ورفعه في

الهواء وبدأ في الصراخ بوجهه المجوف الفارغ، ليخرج دخانٌ أسود من العسكري وينتقل إلى الكيان.

الفصل الثاني
الزيارة

تلألأت أضواء السماء في صباح يوم الزيارة لبيت سميح علام، أشعة الشمس حارقة رغم أننا في بدايات شهر يناير، طوقت السماء بداخلها كثيبًا من السحب رغم قوة الأشعة الشمسية، لجأت بعض الطيور المغردة على أغصان الشجر إلى الشمس للحصول على التدفئة الربانية. سرعان ما ازدحم الشارع بالمارة السائرين كما الروبوتات المبرمجة على السير في اتجاهات مختلفة تشعر أنها عشوائية ولكنها منظمة مرتبة إلى حدٍ كبير. الجميع يسير في اتجاه عمله يتزاحمون على المواصلات العامة.

في محطة أتوبيسات النقل العام، يقف رجل طاعن في السن مرتديًا بذلة بنية ركيكة، ذو وجه مدبب وعوينات مقعرة ونتوء كبير بارز، يحمل بين يديه حقيبة سوداء. توقف الأتوبيس الكبير أمام الرجل فهمَّ بالصعود وسط زحام الكثير من الركاب، ولكن فاجأه شابٌ قصير القامة بالتقدم أمامه، فاصطدم به لتسقط الحقيبة السوداء وتتناثر الأوراق منها، أسرع الشاب الصغير لمساعدته في لملمة ما سقط منه معتذرًا. أعطاه الشاب حقيبته بأوراقها كاملة واعتذر منه مرة أخرى، ثم تقدم في طريقة مبتعدًا عن الأتوبيس. تقدم الرجل صاعدًا ليصبح جزءًا لا يتجزأ مع الركاب الملتصقين، أدخل يده في جيبه الأمامي من البذلة باحثًا عن محفظته الصغيرة فلم يجدها، لم يكن الأتوبيس تحرك إلا خطوات بسيطة، نظر إلى الشاب الصغير فوجده يهرول بعيدًا فصرخ في الركاب قائلًا:

- حراااااااامي!

انطلق شابٌ آخر من داخل الأتوبيس ليعدو وراء الشاب الصغير الذي هرول مسرعًا حين علم أن أمره قد كُشف. ظل الشاب الصغير يهرول مبتعدًا قدر المستطاع ومن ورائه الشاب الآخر، ظل يتنقل بين الأزقة الصغيرة والحارات حتى استطاع أن يتوجه إلى شارع رئيسي آخر. توقف مستندًا إلى الحائط يتنفس الصعداء، صدره يعلو ويهبط، يحاول أن يلتقط أنفاسه ويلملم شتات نفسه، حتى شعر بيدٍ توضع على كتفه ممسكة به، فجحظت عيناه حين رأى ذلك الشاب الذي كان يطارده فأبعد يده مسرعًا ثم ابتسم قائلًا:

- خضتني يا معلم!

- ما يبقاش قلبك خفيف كدا يا أنس! ها المعلوم تمام؟

جلس أنس القرفصاء ثم مسح قطرات عرقه بيده وتحدث قائلًا:

- وأنا ليه شوفت حاجة كدا أنا أخدت ديلي في سناني وجريت.

- واضح إن المحفظة كانت مليانة.. أنا سايب الراجل هيموت عليها.

- خد يا معلم..

أخرج أنس المحفظة وأعطاها له، ففتحها الآخر على عجالة يخرج منها الأوراق النقدية ثم يلقيها بعيدًا ويسيران معًا.

هذه هي حياة أنس قصير القامة كما أطلقوا عليه، شاب صغير، قامته قصيرة، وجهه دائري طفولي خادع، عين بنية، خمري البشرة

وشعر ناعم يشبه شعر الفتيات الصغيرات. لص كبير السن صغير الحجم سريع الحركة، كانت مؤهلاته الجسدية تلك هي حليفته لينضم إلى تلك العصابة من السارقين، يتابع فريسته بعينه وفي الوقت المناسب حين تقع في براثنه يأخذ منها ما يريد. ورجل آخر يقف متواريًا وسط الزحام إذا اكتشفت الضحية ما سُرق منها وصرخ بالناس يظهر الرجل الآخر مدعيًا البطولة وأنه هو من سيأتي باللص الصغير حتى لا يسبقه أحد آخر. انتشله هذا الرجل حليق الرأس ضخم البنية من الشوارع حين كان صغيرًا، جعل له مكانًا يبيت فيه وفتات خبز يلقيها له آخر كل ليلة ليسد بها جوع حياة زائفة لا يعلم نهايتها.

انطلق الاثنان معًا ليجلسا بأحد المقاهي، أحضر ذلك الضخم كوبًا من الشاي بلبن له ولم يحضر شيئًا لأنس، فأمتعض وجه الأخير وظل محملقًا في كوب الشاي يتمنى لو يأخذ رشفة من،ه ولكنه لا يقوى على الطلب. تجرع الضخم نصفه جرعة واحدة ثم مسح بيده بقاياه المتناثرة على شفتيه، ثم تجشأ بصوتٍ عالٍ وتحدث قائلًا:

- بص يا أنس.. أنا عايرك تكبر في الشغلانة ياض.

- يعنى أعمل إيه أكتر من كدا يا معلم؟

- انت دلوقتي كبرت وبقيت راجل والقرش لازم يجرى في إيدك.

صدرت منه ابتسامة ساخرة قائلًا:

- والله أنا نفسي يا معلم بس إزاي وأنا شغال معاك؟

- انت تقصد إيه ياض؟!

- ما قصدش حاجة.. انت اللي تقصد إيه؟!

اعتدل الرجل الضخم في جلسته وتكلم بصوت يكاد يكون أقرب إلى الهمس:

- فيه فيلا في وسط البلد إنما إيه، لقطة.. إحنا بقى هنقشطها.

- انت عايرني أبقى هجام بقى!

- وماله! أنا رقيتك من النهاردا، شغل الخفافي ما بقاش يليق عليك، والفيلا سورها عالي عايزة واحد خفيف زيك هو ينط يبقى جوا يسلك الحاجة وتخرج بألف سلامة.

- وانت وقعت عليها إزاي دي؟!

- رجالتي العساسين بقالهم فترة بيحوموا حواليها، قاعد فيها راجل وحيد إنما إيه كل يوم يخرج ويركب عربيته الفخمة ويرجع آخر الليل، يعني اليوم كله معانا.

- انت عايزنا ننط على الفيلا في عز النهار؟

- ما هو دا الجديد.. والكلام دا هيتنفذ النهاردا.

أراح أنس جسده للوراء وعقد يديه أمام صدره قائلًا:

- طب وأنا حصتي كام؟!

حك المعلم راحة يديه معًا قائلًا بخبث:

- مش هنختلف.

- لا، اللي أوله شرط آخره نور.. مصلحتي كام؟

- هديك 1000 جنيه.

- شوية.

- واللي هيطلع من جوا ليك فيه التلت.

ظل ناظرًا له في صمت حتى تحدث المعلم:

- ها قولت إيه؟

- ماشي.. وهنبدأ امتى؟

- كمان ساعة.. اجهز وأنا هعدي آخدك.

نهض المعلم مبتعدًا عن أنس الذي بدا عليه الخوف قليلًا، ولكنه بداخله كان يوقن أنه يستطيع فعل ذلك وأن ذلك الأمر الشنيع المقدم على فعله هو آخر ما سيفعله مع ذلك الرجل مرة أخرى، سوف يأخذ حصته من عملية السرقة ولن يسرق مرة أخرى.

***

نهض حسين من مجلسه داخل غرفة علي متتبعًا ذلك الصوت المزعج، صوت طرقات متسارعة منتظمة. بحث عن مصدرها في كل أركان الغرفة ولكنه لم يجده، وقف مستندًا إلى أحد الحوائط واضعًا يديه على أذنيه.

تسارعت الطرقات وعلا صوتها، فخرَّ حسين أرضًا صارخًا وقد تكور

جسده في وضع الجنين، وضغط بيديه على أذنيه بقوة أكثر أملًا أن يتوقف الصوت، وبالفعل توقف.

رفع رأسه رويدًا ناظرًا حوله ليجد نفسه في مكان آخر هو يعرفه جيدًا، غنه بيته في الصعيد، كان المنزل خاليًا تمامًا من أي أثاث، والإضاءة خافتة تكاد تكون منعدمة، تحرك بخطوات حذرة تجاه باب خشبي متهالك، جذب مقبضه الصغير ليصدر صريرًا مزعجًا. نظر إلى الخلاء ليجد أرضه الزراعية الكبيرة، والهواء البارد يجتاح رئتيه، سحب شهيقًا طويلًا ليملأ صدره بالهواء، ثم تقدم خارج المنزل ليختفي المنزل تمامًا من ورائه.

عقد حاجبية في ذهول، فهو إلى الآن لا يعلم كيف جاء إلى هنا. ظل سائرًا هائمًا لا يعلم إلى أين المفر، حتى أوقفه صوت استغاثة، طفل صغير ينادي على أُمه خائفًا. بحث عن مصدر الصوت ولكن لم يجده، فهو محاط بالخلاء من الجوانب الأربع. ظل صوت نحيب الطفل يعلو ويعلو. هرول في ذلك الاتجاه حين شعر أن الصوت مصدره من هنا، ولكن لا شيء. علا الصوت من الاتجاه الآخر، فهرول إليه، ولكن لا شيء، حتى تجمد الدم في عروقه حين ظهر أمامه بئر دائري ذو حجارة مستطيلة مرصوصة بترتيبٍ وإتقان كبير، يتوسطه لوح خشبي معلق في وسطه دلو خشبي متوسط الحجم، لا يعلم متى بدأت تلك الأمطار الغزيرة في الهطول.

نحيب الطفل علا أكثر وأكثر، تقدم بعيون خائفة وخطوات مترددة تجاه البئر مصدر الصوت، توقف أمامه، الخوف يملأ قلبه، البرودة تسري في جسده. وضع يده المرتعشة على سور البئر، وفي تردد

ملحوظ مال برأسه لينظر داخله. ظلام تام وصدى صوت نحيب الطفل يبث جوًا من الرعب داخل قلبه، حاول أن ينظر جيدًا ليرى الطفل الباكي، ولكن باءت محاولاته بالفشل. التفت بجسده عائدًا، ولكن جحظت عيناه حين رأى كيانًا أسود مشعر يقف أمامه والأمطار تهطل على جسده، فصرخ حسين دون صوت. هنا تحرك الكيان تجاهه، يسير دون أقدام، تحمل يده ذات المخالب منجلًا صغيرًا تتساقط منه قطرات الدماء، فتح فاهه لتظهر أنياب حادة وخرج صوته محشرجًا قائلًا:

- لا تنظر وراءك يا علام!

شعر حسين بهواء ساخن خلف رأسه، ليتحرك بقلبٍ مذعور وعين جاحظة ناظرًا خلفه، ليجد طفلًا ذا وجه مجوف خالٍ، أمسك بوجه حسين صارخًا وألقى به داخل البئر المظلم.

***

ظهر أنس اللص ضئيل الحجم من بين سيارتين كبيرتين مرتديًا زيًا أسود، وحقيبة ظهر حاملًا إياها على ظهره الصغير، يبدو من بعيد كطفلٍ في أول أيام دراسته. سار حتى توقف أمام المقهى مكان لقائه الموعود مع الرجل الآخر حليق الرأس، نظر له الرجل الجالس على المقهى وعبر الشارع بعد أن لوَّح له بيديه محييًا إياه.

كادت سيارة تدهسه وهو يعبر، فتمنى أنس بداخله لو حدث هذا الأمر ولكن لم تتحقق أمنيته. توقف أمامه مبتسمًا ابتسامة بلهاء تنم عن غباء شديد، لتظهر أسنان سوداء، أو بالأحرى ما تبقى منها، وضع

يده في جيب معطفه وأخرج قفازات وأعطاها لأنس قائلًا:

- البس دول عشان البصمات.

فعلق أنس ضاحكًا:

- لا ناصح ما شاء الله!

- أنا مش عايرك تخاف، أنا في ظهرك ومش هسيبك.

- هو انت مش جاي معايا ولا إيه؟

قالها أنس ممتعضًا بعين تملكها بعض القلق:

- لا إزاي! أنا هوصلك لحد هناك بس انت تخش لوحدك.

- نعم!!

- ما تخافش، هبقى مستنيك برا، انت تدخل تقضي المصلحة.. هروب.. تخلع ونعيش بقى.

زم أنس شفتيه، ثم التقط القفازات من بين يديه وسارا معًا في اتجاه هدفهم المنشود.

***

- يا حسين، مالك بس يا ابن عمي؟ فوق يا حسين اصحى!

كانت هذه الكلمات تخرج من فم علي في محاولة منه أن يوقظ ابن عمومته بعد أن رأى جسده ينتفض ويداه تتخذان وضعًا معاكسًا وجسده يتعرض لتشنجات عصبية بالغة. لوهلة شعر علي أن عينه

فُتحت لتظهر بيضاء تمامًا، مما بث الرعب في قلبه.

بعد محاولات عديدة، ولعاب سال على ملابس حسين، وانتفاضات كثيرة، هدأ الجسد المريض رويدًا رويدًا، وتخلص من شبح الصرع ولو قليلًا، وكان الهدوء التدريجي هذا يشبه لحظة خروج الروح من الجسد.

ساعد علي ابن عمومته على الاعتدال في جلسته، وأحضر له كوبًا من الماء ليتجرع منه قليلًا. نظر حسين في الأفق من حوله بعين مُجهدة غير مفتوحة بالكامل، ليجد نفسه في غرفة علي وقد اختفت البئر والطفل الخاوي. أراد أن يبكي، أراد أن يحتضن علي بشدة لرجوعه إلى أرض الواقع مرة أخرى، نهض بعد أن استجمع قوته وجلس على الأريكة المتهالكة، فتحدث علي في قلق واضح:

- سلامتك يا حسين مالك بس؟

بعينٍ زائغة من حسين وصوت منهك تخللته الكلمات:

- ما انت عارف المرض اللي اتبليت بيه.

- مش كنت اتعالجت منه يا حسين؟

ابتسم ساخرًا:

- يا ريت.. بس النوبة المرة دي فيها حاجة غريبة.

- إزاي يعني؟

اعتدل علي في جلسته محاولًا أن يظهر بعض ملامح الجدية:

- أنا كنت عندنا في البلد.

- البلد! إزاي وانت معايا آهو؟

- شوفت كابوس فظيع يا علي، وروحت عند البير.

جحظت عين علي وعقب مشدوهًا:

- اوعى تكون تقصد بير...

- هو.. هو يا علي.

- وانت إيه اللي فكرك بيه دا؟ دي حكاية وانتهت من زمان!

- واضح إنها لسه ما انتهتش.

نهض علي بعد أن تجرع كوبًا من الماء، وتوقف أمام مرآة مكسور نصفها، وهندم قميصه المزركش الذي استعاره من حسين، ونظر إلى نفسه قائلًا:

- وبعدهالك يا خالة براهم! مصممة تطارديناا!

تغيرت ملامح وجه حسين وقال معنفًا:

- قولتلك 100 مرة مابحبش أسمع الاسم ده!

همَّ علي بالرد على تعنيفه، ولكن قاطعهم صوت بوق سيارة منة، فاقترب علي من حسين قائلًا:

- يلا عشان منة تحت.. عشان نروح نشوف ابن عمك التاني.

أمام بوابة المنزل المتهالك، تجلس منة داخل سيارتها في

انتظارهما، جاء الاثنان وقد توجه حسين للجلوس في المقعد الأمامي المجاور لمقعد عجلة القيادة، أما علي فجلس في الخلف محييًا منة. أدارات المفتاح لتصدر سيارتها حشرجة خفيفة في بداية الأمر، ثم كررت الأمر مرة أخرى فاهتزت السيارة قليلًا جراء استجابة المحرك العتيق لأمر التشغيل، وتحركت السيارة تجاه منزل سميح علام. أخرج حسين نوتته الصغيرة وتوجه إلى صفحة بيضاء فارغة وخط بقلمه ذي الحبر الأحمر:

«الساعة الواحدة ظهرًا.. في الطريق إلى منزل سميح علام».

***

توقف أنس أمام الفيلا المنشودة يتأملها في إعجاب ملحوظ؛ تقع في وسط المدينة في منطقة غير مكتظة بالسكان، تبعد عن ازدحام المارة والسيارات، يحيطها من الخارج سور خشبي ذو ارتفاع مهيب، الأشجار تغطي الجدران الأمامية، الأغصان المتفرعة لا تتحرك على الرغم من وجود رياح عاتية بعض الشيء. ألقى الرجل حليق الرأس التحية على أنس متمنيًا له الحظ الجيد، ثم فر سريعًا من أمامه وكأنه تبخر. تنفس أنس الصعداء وتأكد من ثبات الحقيبة على ظهره، ثم نظر يمينًا ويسارًا ليتأكد خلو الشارع من المارة تمامًا، وأن لا أحد يراقبه. جرى مسرعًا بخفة عالية تجاه جدار الفيلا، أسند قدمه الصغيرة على جذع شجرة يافعة ليتسلقها بسرعة ويجلس أعلى الجدار، ثم نظر إلى الشارع من خلفه مرة أخرى وقفز داخل الفيلا.

لم يكن يعلم أن داسم يقف على الجهة المقابلة، يراقب تحركاته،

ويبتسم ابتسامةً خبيثة بينما يراه يقفز إلى الداخل. لحظات حتى جاء الرجل حليق الرأس ليقف أمام داسم محييًا إياه قائلًا:

- أظن كدا يا باشا أنا نفذت اتفاقي.. فين بقى حقي؟

لم ينظر له داسم، اكتفى بوضع يده في جيب معطفه وأخرج ظرفًا مكتظًا بالمال، وأعطاه للرجل، فسال لعابه على الأوراق النقدية والتقطتها منه مبتعدًا.

على الجانب الأمامي من الفيلا، الكبيرة، توقفت سيارة منة، وهبط منها الثلاثة ليقفوا أمام بوابة حديدية ضخمة. تأملت منة الجدار العالي أمامها، ثم نظرت إلى لافته صغيرة موضوعة بجانب البوابة كُتب عليها «فيلا سميح علام». تقدم علي محاولًا أن ينظر إلى الداخل ليجد الحارس، ولكن لم يكن هناك أحد، اقترب حسين ودفع البوابة بيده ففُتحت، فأدركوا أن الفيلا قابعة هنا دون حارس.

دلف الثلاثة بخطوات ثابتة وهادئة ليطلقوا العنان لأنظارهم ليتمتعوا بجمال الورود وأشجار التفاح الكبيرة، ظهر من بعد الأشجار سلمٌ رخامي ليس بكبير، يقودهم إلى باب خشبي بضلفتين كبيرتين، تقدم حسين وعلي ومنة من خلفهم، همَّ حسين بقرع جرس الباب، ولكن استوقفهم صوت منة قائلة:

- مش غريبة إن ابن عمك يبقى حافر بير في الفيلا هنا؟

نظر الاثنان إلى بعضهما وببطء شديد أداروا رؤوسهم وتمنى حسين في داخله ألا يرى تلك البئر، ولكن الأماني لا تُحقق في حياته عادةً، توجهوا بنظرهم ليجدوا بئرًا دائرية، ذات حجارة مستطيلة

مرصوصة بترتيب وإتقان كبير، يتوسطها لوح خشبي معلق في وسطه دلو خشبي متوسط الحجم.

تنفس الاثنان الصعداء وتغيرت ملامح وجه حسين قليلًا، جاء صوت طرقات من اتجاه البئر، فعاد الثلاثة بنظرهم إليه مرة أخرى، ونظر حسين إلى علي ثم همَّ بقرع جرس الباب. فُتح الباب ليظهر من ورائه داسم مبتسمًا ببشرة بيضاء لامعة، ثم تحدث بصوت رخيم:

- الباشا في انتظارك.. اتفضل.

همَّ الثلاثة بالدخول، ولكن استوقف داسم حسين بيديه قائلًا:

- أستاذ علي بس هو اللي هيدخل.

انعقدا حاجبا حسين وقال معنفًا:

- أنا حسين علام، وجاي أقابل سميح علام، مش انت اللي هتمنعني!

- أنا عارف انت تبقى مين كويس، بس الباشا مدي معاد لعلي بس.

- وأنا مش هدخل من غيرهم.

قالها علي وهو ينظر إلى داسم، وظل الصمت سيد الموقف لثوانٍ، حتى ابتسم داسم قائلًا:

- أظن الباشا مش هيمانع يقابلكم.. اتفضلوا.

بمجرد أن وطئت أقدامهم داخل الفيلا، شعر الجميع بهواء بارد يلفح وجوههم، شعرت منه أنها دلفت إلى منزل كلاسيكي فريد يشبه

إلى حدٍ ما المنازل التي كانت تظهر قديمًا في أفلام الرعب. أثاث مذهب، سجاد أصفهاني مزركش، وعلى يمينهم كانت توجد غرفة كبيرة ذات باب مزلاجي من الخشب، وأمامهم يوجد سلم دائري من الرخام الأبيض، أما على يسارهم وجدت طاولة كبيرة.

أشار لهم داسم بالولوج إلى الغرفة ذات المزلاج بعد أن فتح بابها على مصراعيه، فتقدموا إلى الداخل ليجدوا الغرفة تحتوي على ثلاثة كراسٍ مبطنة مصطفة بجوار بعضها، وكرسي وحيد أمامهم، وفي المنتصف وُضعت منضدة تتوسطها مزهرية تحوي ورودًا ذابلة.

طلب منهم الجلوس لحين إعلام سميح بحضورهم. التفت ثم أغلق الباب من خلفه، وجلس الثلاثة على كراسيهم في انتظار حضور مضيفهم، فتحدث علي وهو يتفحص بعينه الغرفة الفارهة:

- بقى ابن عمك عايش في العز دا كله وسايبني كدا!

- غريبه فعلًا يا علي! هما رجال المباحث بيكسبوا حلو كدا؟

- أكيد لأ...

قالتها منة مستنكرة ثم تابعت قائلة:

- أكيد ابن عمك شغال في حاجة شمال.

- لا سميح مايعملش حاجة غلط.

- طب والنبي ما تبقاش واثق أوي كدا.

جاءت الكلمة من فاه علي مستنكرًا ثم تابع:

- أنا أعرف إنه كان شغال مع الحاج نعمان العطار في كام مصلحة مش ولا بد.. أكيد هما اللي جابوا له العز دا كله.. بس يا ترى هو جايبني عشان يشغلني معاه؟

قاطع حبل أفكارهم الباب المزلاجي يُفتح مرة أخرى، ليظهر من خلفه داسم الذي دلف إلى الغرفة وتبعه سميح علام. بشرة باهتة، حركة بطيئة مرتعشة، وعين بنيه زائغة. العضلات المفتولة قد تهاوت، والبروز الصدري لم يعد موجودًا، والعين تحمل أسفلها هالة من السواد المفحم.

جحظت عين كلًا من حسين وعلي حين شعروا أن ابن عمومتهم صاحب البنية العضلية والصحة الجيدة لم يعد كذلك. تقدم علي مسرعًا لاحتضان سميح، ولكن استوقفه داسم واضعًا يده على صدره لتستقر راحة يده قائلًا بهدوء شديد:

- الباشا ما بيحضنش حد.

- إيه الكلام دا؟ ما تقوله حاجة يا سميح!

- سميح باشا مريض وما ينفعش يبقى فيه تلامس جسدي مع أي حد.

- اقعد يا علي إحنا مش جايين نحضن بعض.

جاءته الجملة من حسين، فلان فكر علي وعاد جالسًا، تقدم سميح بعين مرهقة زائغة ليجلس على الكرسي الفارغ أمامهم وبجواره يقف داسم، كأنهم في جلسه جماعية من العلاج النفسي، يصطف ثلاثة

من المرضى أمام دكتور سميح، نظر سميح لهم للمرة الأولى منذ وطئت قدماه داخل الغرفة وابتسم قائلًا:

- وحشتوني يا ولاد عمي. مين اللي معاكم دي؟

اعتدلت منة في جلستها ثم تحدثت قائلة:

- أنا منة، زميلة حسين في الجريدة.

- اهلًا بيكِ.

- بس بيت حضرتك جميل جدًا!

- عجبك؟

- أكيد.

- ولسه لما تشوفي بقية البيت هتحبيه أكتر.

كانت الكلمات تخرج من فم سميح بصعوبة قليلًا، ثم أكمل موجهًا الكلام إلى حسين:

- وانت يا حسين، إيه رأيك في البيت؟

- كئيب شوية، هادي زيادة عن اللزوم. المهم خلينا في اللي جايين عشانه.

- مافيش أي كلام هيبدأ قبل الغدا.

أشار سميح بيد مرتعشة إلى داسم الذي أشار للضيوف الثلاثة رافعًا ساعده الأيمن تجاه الباب المزلاجي، همَّ حسين بالرفض ولكن

استوقفته يد منة هامسة:

- لازم نجاريه عشين ناخد المعلومات اللي إحنا عايزينها.

نهض الثلاثة خارجين من الباب المزلاجي، فوجدوا أمامهم الغرفة ذات المنضدة الكبيرة وقد فُرشت عليها جميع أشكال الطعام، انعقد حاجبا حسين ثم وجه نظره إلى داسم متساءلا:

- أنا ما لاحظتش أي خدم هنا، وإحنا داخلين ماكانش فيه كل دا!

- كان موجود وجاهز في انتظاركم لكن انتم مالاحظتوش.

تقدم الثلاثة إلى الطاولة ليجلسوا، ويبدأ علي في التهام الطعام بشراهة واضحة، أما منة فكانت تتصنع أنها تأكل، وحسين لم يكن يعير الطعام انتباهًا، ولكن كان يتفحص أرجاء القصر الكبير بعينيه، فوقعت عينه على داسم الذي عاد للوقوف بجوار سميح ينظر لهما في ابتسامة خبيثة واضحة.

***

قفز أنس خلف سور الفيلا ليصطدم بالأرض، فجرحت قدمه جراء لمس بعضًا من زهور الصبار، لم يهتم وبدأ يتفقد المكان بعينيه، ثم توارى بجوار شجرة كبيرة. ما لبث أن توقف أسفلها حتى سقط شيء فوق رأسه، تحسس موضع السقوط ثم رفع رأسه ناظرًا لأعلى ثم لأسفل، ليجد تفاحة كبيرة هي التي سقطت، لم يلحظ أن يدًا ذات مخالب هي التي أسقطت تلك التفاحة على رأسه، ثم ابتعدت اليد سريعًا لتتوارى خلف الأغصان حيم رفع نظره إليها.

همَّ بالتوجه إلى الباب الخشبي ليرى كيف سيدلف إلى الفيلا، ولكن استوقفه صوت أشخاص قادمين، فانزوى خلف أحد جدران البئر التي تنتصف حديقة الفيلا، ليجد رجلين وامرأة شابة يدلفان ثم يصعدان السلم الرخامي، وجد المرأة تنظر تجاهه فحبس الدم في عروقه، ولكنه استنتج أنها لا تنظر إليه هو، إنما للبئر المتواري خلفها. ثم تبعها الرجلان بنفس الفعل.

نظر أنس ليده فوجد عنكبوتًا عليها، فامتعض وجهه مشمئزًا يبعده عن يدهن حتى فرَّ العنكبوت وكأنه يهرب متسلقًا جدار البئر، فأمسك بحجر صغير داهسًا إياه على حائط البئر، فصدر صوت احتكاك الحجر بالحجر، فانتبه له الثلاثة ناظرين، فتوجس أن يكون أمره قد كُشف، ولكنه وجدهم يدلفون بعدها إلى الفيلا.

تنفس أنس الصعداء ثم قرر أنه يجب أن يدلف إلى الفيلا المنشودة ممنيًا نفسه بالأموال الطائلة التي سيجمعها من مكان كهذا. بحث بعينيه جيدًا مرة أخرى ليجد بابًا خشبيًا صغيرًا في الجزء الخلفي المقابل للبئر تحديدًا، ابتسم بانتصارٍ وقد علم أن ذلك المكان هو تذكرة ولوجه إلى مكان الأحلام.

اقترب من الباب، أمسك بمقبضه الهشيم، فتحه ليدلف منه في سعادة. بمجرد أن ابتلع الباب أنس، تجمعت بعض أغصان الشجر وكأنها تسير على قدمين لتخفي ذلك الباب وكأن لم يكن موجودًا من الأساس.

***

انتهى الأصدقاء الثلاثة من وجبة الغداء الدسمة، وعادوا إلى الغرفة القابع بها سميح وخادمه، وقت طويل من الصمت بينهم، لا أحد يريد أن يبدأ بالكلام، العبوس يعلو وجههم فيما عدا داسم، وجهه مبتسم دائمًا. بدأت منة في جذب أطراف الحديث قائلة:

- نتمنى إن صحتك تكون بخير.. بس حضرتك أكيد عارف إحنا هنا ليه أنا وحسين.

- أكيد.. بس أنا شايف إن حسين ساكت وما بيتكلمش، هو انت جاي ليه يا حسين؟

أخرج حسين زفيرًا حانقًا قائلًا:

- الجريدة اللي إحنا شغالين فيها مكلفانا بتحقيق صحفي عنك، بيقولوا إنك بتطرد الصحافة، بس بما إني من عائلة علام فأكيد مش هتطردني وهتحكي لي حكايتك، صح؟

- صح يا حسين، أكيد مش هتطردك.

- إيه اللي وصلك لكدا يا سميح؟

عقد سميح حاجبيه متعجبًا:

- اللي هو إيه؟

- صحتك شكلها متدهور جدًا، بيت غريب.. واعذرني اللي واقف جنبك دا يبقى مين؟

- داسم.. دا داسم، مساعدي المخلص، اتعرفت عليه في رحلتي،

وهو بيساعدني ومسؤول عن كل تفصيله في حياتي مهما كنت صغيرة.

- ممكن نعرف مرض إيه؟

تساءل علي فجاءته الإجابة من داسم بهدوء مبالغ فيه:

- كانسر.. سميح باشا مريض كانسر في الدم.

جحظت عين حسين وعلي نتيجة ما وقع على مسامعهما، وبدا الاثنان متأثرين تمامًا، فتصنع سميح ابتسامةً على وجهه متحدثًا:

- ما تخافوش، أنا اللي باقي لي مش كتير، عشان كدا قررت إني أتكلم وأقولكم كل حاجة، بس الأول فيه حاجة مهمة يا علي لازم تعرفها..

اعتدل علي في جلسته بعدما أشار سميح لداسم أن يحضر بعض الأوراق من مكتبه مناولًا إياها لعلي الذي قلَّبها متفحصًا ثم تساءل:

- إيه دا؟!

- دي عقود بيع وشرا مني ليك بالفيلا الكبيرة دي، وكمان مبلغ بسيط في البنك. أنا ماليش حد يورثني انت عارف، ومافيش أحسن منك انت يا علي اللي أأتمنه على فلوسي، وأكيد حسين معاك برضو، أنا سايب له مبلغ باسمه في البنك.

- إحنا استحالة نقبل حاجة زي دي!

تذمر حسين رافضًا ما عرض ابن عمومته، في حين انفرجت

أساريير علي واعتلت قسماته فرحة بالغة وقال:

- العمر كله ليك.. بس دا كتير أوي!

- انت ناسي ولا إيه؟ أنا كبيركم ومسؤول عنكم وهفضل مسؤول عنكم لحد ما أموت.

تحدثت منة بعد صمت طويل قائلة:

- انت بتؤمن بالماورائيات يا أستاذ سميح؟

- ماكنتش مؤمن بيها لحد ما حصل اللي حصل.

- اللي هو...؟!

قالها حسين وهو يخرج جهاز الووكمان واضعًا إياه على المنضدة، وضغط على زر التسجيل، فتقدم داسم معلقًا إياه مبتسمًا، فتهجم وجه حسين غضبًا، وقبل أن يزداد الأمر حدة بين الاثنين قال سميح:

- هخليك تسجل كل حاجة وهقولك اللي حصلي، بس الأول لازم نتفق..

- نتفق على إيه؟

- أنا واجهت 3 حوادث بـ3 حكايات مختلفة وغريبة، أنا الرابط الوحيد اللي بينهم، عشان أحكيلك دا وتنشره في الجرنان بتاعك لازم تقضي معايا في الفيلا هنا 3 أيام، كل يوم حكاية وكل يوم الصورة هتوضح أكتر، لو موافق على العرض بتاعي يبقى هنبتدي حالًا.

- أنا ممكن أكون معاك، لكن منة...

قاطعته منه قائلة:

- أنا كمان ماعنديش مشكلة.

تعجب حسين من موقف منة الغريب، ثم تحدث علي قائلًا:

- طيب أنا بقى همشي وأسيبكم مع بعض في شغلكم، أكيد هجيلك تاني يا ابن عمي بس الأول هروح أصفى شغلي مع الحاج نعمان، خلاص أظن إني مش هحتاج للشغل معاه تاني.

- انتم التلاتة هتقعدوا مع بعض.

جاءت الكلمات من داسم الذى استطرد شارحًا:

- مسموح ليكم التجول في الفيلا بحرية، إلا البدروم، ممنوع حد يجي عنده إلا بأمر من سميح باشا.

- شوفت البير يا حسين وانت داخل؟

تجهم وجه حسين وتحدث بجزء بسيط من الغصب:

- أنا مش جاي هنا أتكلم عن البير، أنا جاي أتكلم عنك انت.

- كل واحد له أوضة يقعد فيها، وكل حاجة بمعاد، الأكل والنوم والكلام، كل حاجة ليها نظام ماينفعش نبوظة.. اتفقنا؟

نهض سميح بمساعدة داسم وتوجه إلى إحدى النوافذ ناظرًا إلى البئر، ثم عاد بنظره إلى حسين قائلًا:

- الحكاية كلها بدأت بعد 6 شهور من تعييني، لما مسكت التحقيق في أول جريمة قتل. الموضوع كان غريب جدًا، طقس تحضير

أرواح كان بيعمله راجل كبير في السن انتهى بموته، أو بمعنى أدق.. انتحاره.

الفصل الثالث

القضية الأولى ـ طقس عودة الروح

لم يكن يعلم كيف أتى إلى هنا ومن هذا الرجل ذو الوجه البشوش واللحية البيضاء الذي يجلس أمامه، توقفت كل الأصوات من حوله، كان يشعر بالخوف قليلًا حين ربَّت هذا الغريب على كتفه ثم جلس أمامه وبدأ في الحديث قائلًا:

- لازم تحتفظ بهدوءك ومافيش داعي للخوف، أنا هنا عشان أعلمك وأفهمك انت مين وبتعمل إيه هنا، لازم يبقى عندك ثقة في نفسك وإنك تقدر تهزمهم بالمعرفة والقوة وبمشيئة الله.

شعر أن قلبه اطمأن ولو قليلًا، وبدأ يستمع إلى الغريب.

***

في بادئ الأمر، وحين تخرجت في كلية الشرطة وحققت ما طمح إليه والدي جعفر علام، بدأ يخالجني شعور بأن العالم توقف عند هذه اللحظة، حين رفع هذا العسكري الصغير القابع أمام باب مكتبي يده بالتحية العسكري، وتوقف الهمس حين رآني بعض المارين داخل قسم الشرطة، ترى في أعينهم خوفًا مسبقًا رغم أنني لم أحتك بهم بعد. الهيبة التي يمتلكها ضابط الشرطة في وطننا لا يضاهيها شيء، حرص الجميع على أن ينال رضاي ويتودد إليَّ بشتى الطرق والحيل المكشوفة، مما يجعلني ابتسم داخلي. على لسان أحد العساكر المخلصين كان يخبرني دائمًا أن هيبتي تختلف عن باقي أقراني من الضباط، نظرتي الجامدة غير المصطنعة تجعلهم ينفذون أوامري

دون تكرار.

في ذلك اليوم، وتحديدًا حين دلفت إلى مكتبي بعدما نُقلت بستة أشهر من تعييني، جاء أمر نقلي إلى محافظة ريفية، توجهت من محطة القطار بسيارة الشرطة التي كانت تنتظرني إلى مكان عملي الجديد، توقفت السيارة بعد مسافة سير ما يقرب ساعة. ترجلت من السيارة ناظرًا حولي لأجد نقطة الشرطة متهالكة تحتضنها أرض زراعية فارهة، المكان مظلم من حولها إلا من عمود إنارة وحيد يبث ضوءًا ضعيفًا مرتعشًا. دلفت من باب نقطة الشرطة فوقف العسكري القابع أمامها محييًا إياي، كانت فارغة من الآمرين والمأمورين، توجهت إلى بابٍ خشبي وضعت عليه لافتة مال جزؤها الأيسر، كُتب عليها «مأمور القسم». أدرت مقبضها الخشبي الصغير لأجدها غرفة مقبولة إلى حدٍ ما، بها مكتب صغير أمامه كرسيان من الخشب وأريكة نصف مكتملة. جلست وقد طلبت مسبقًا أن يحضروا لي فنجانًا من القهوة، أخرجت علبة سجائري المعدنية، تناولت واحدة وأشعلتها بمشط من الكبريت. حينها جاءت طرقات على الباب فأمرت الطارق بالدخول.

ظهر من خلف الباب رجل ذو وجه دائري غليظ وشارب كث، تميل أطرافه لأعلى بنيته ضخمة ليست مواظبة على الألعاب الجسمانية، ولكن من كثرة الطعام. رفع يده بالتحية العسكرية قائلًا:

- حمد الله على سلامتك يا فندم.

- الله يسلمك.

- أنا حسان الغريب، الشاويش اللي هكون مع حضرتك.

اعتدلت في جلستي وتفحصته بنظري جيدًا قائلًا:

- أهلًا يا حسان.. يا ترى البلد هنا عاملة إيه؟

- زي ما سعادتك شايف، الدنيا هس هس، راحة مافيش بعدها راحة.

- كويسز

- لمؤاخذة سيادتك.. حضرتك عرفت هتبات فين؟

- لا لسه.

- الأوضة اللي جنبنا دي حضرتك هي استراحة الضباط، تحب أوديلك الشنطة هناك؟

- لا سيبها أنا هاخد حاجتي بنفسي.

- أنا واقف برا سيادتك لو احتجت حاجة.

- تمام.. اتفضل انت واستعجل القهوة.

رفع يده بالتحية ثم توجه إلى خارج الغرفة، نهضت من مكاني متجهًا إلى نافذة الغرفة الصغيرة لأتمتع بما يستطيع نظري أن يراه وسط ذلك الظلام الحالك. سحبت شهيقًا طويلًا لأستمتع بالهواء البارد وتلك الرائحة العتيقة. للأماكن الريفية رائحة خاصة افتقدتها منذ تركت بلدنا الصغير قديمًا لألتحق بكلية الشرطة، الهواء يداعب العشب الأخضر ليُصدرا معًا صوتًا رائعًا، يشبه سمفونية متناسقة.

يهاب البعض ذلك الصوت على عكسي أنا تمامًا، دائمًا ما كان يبث الطمأنينة في داخلي.

لحظات وجاء صوت طرقات على الباب ليدلف منه مراهق صغير هزيل الجسد، ذو عينين ضيقتين، يرتدى جلبابًا مهرولًا. تقدم إلى المكتب واضعًا فنجان القهوة، فابتسمت له سائلًا:

- انت شغال معانا في القسم هنا؟

ابتسم قائلًا:

- يا ريت يا باشا.. أنا شغال في القهوة اللي جنب القسم.

- غريبة!

- إيه اللي غريب؟

- ماشوفتهاش خالص وأنا داخل!

- لا إزاي؟ موجودة على يمين القسم على طول.

- اسمك إيه؟

- حامد.

وضعت يدي في جيبي لأخرج بعض النقود مادًا يدي بها لحامد:

- خد يا حامد.

- من يد ما نعدمهاش يا باشا. شكلك طيب، خلي بالك من نفسك يا باشا.

- مافيش حاجة يتخاف منها هنا!

دنا مني حامد بشكلٍ ملحوظ تعجبت له، وشعرت أن قسمات وجهه قد تغيرت وقال هامسًا:

- الهدوء دا مش طبيعي، وانت ماجتش هنا صدفة، كل حاجة مقصودة، انت جيت عش الدبابير برجليك بس يا ترى هتعرف تخرج منه؟

- انت بتقول إيه يا ابني؟ انت كويس؟

- أنا عايز منك خدمة يا باشا..

- هو أنا لحقت! ومع ذلك قول يا سيدي..

- خلصني من إيديهم.. نفسي أرتاح يا باشا.

- انت شكلك واخدلك لطشة برد وبتخترف.. يا حسان.. يا حسان!

أدرت له ظهري متجهًا إلى باب المكتب وقمت بفتحه على مصراعيه مناديًا حسان الذي جاءني مسرعًا وحين دلف إلى الغرفة تحدثت قائلًا:

- مين الواد المجنون اللي جابلي القهوة دا؟

بحث حسان بعينيه داخل الغرفة التي كانت خالية تمامًا ثم ابتلع ريقه قائلًا:

- يا باشا العسكري جاي ورايا بالقهوة لسه!

- إزاي يعني؟ ما القهوة على المكتب آهه!

نظرت إلى مكتبي الخشبي ووقفت مشدوهًا حين لم أجد فنجان القهوة. شعرت بالخوف قليلًا ثم عدت بنظري إلى حسان قائلًا:

- مش فيه قهوة جنب القسم شغال فيها واد اسمه حامد؟

- حامد!!

قالها حسان متعجبًا.

- وانت عرفت حامد منين وإزاي؟!

- روح ناديهولي.

- يا سميح باشا أندهه منين؟

- من القهوة!

- مافيش قهوة، أبو حامد باعها بعد ما حامد ابنه مات من يجي سبع شهور.

وقع الكلام عليّ كالصاعقة، كيف لشخص ميت أن يأتي إليّ ويتحدث معي؟ أمرته بالانصراف بينما أخذ عقلي يفكر كثيرًا، شعرت أن الزمن توقف وأن عقلي قد أُنهك بما فيه الكفاية. لفت نظري المبلغ المالي الذي أعطيته لحامد مسبقًا ملقى أرضًا، أخذته واضعًا إياه في جيبي، ثم توجهت إلى النافذة وأنا أبتسم طاردًا من عقلي كل ما حدث، وتيقنت في قرارة نفسي أن ما حدث ما هو إلا إرهاق من السفر. ولكن كل ذلك تغير حين وجدت حامد يقف في منتصف الأرض الزراعية مبتسمًا ويلوح لي بيده.

***

في صباح اليوم التالي، أحضر لي حسان صينية دائرية وضع عليها ما لذ وطاب من الطعام، عرفت بعد ذلك أنه نوع من أنواع الترحاب من عمدة القرية، حاولت أن أحدثه عما جرى في الليلة الماضية، ولكن انعقد لساني عن الكلام، أما هو فكنت ألمح بين طيات حديثة بعض التلميحات والإشارات، وكأنه يريد أن ينبهني لما حدث حتى أشاطره الحديث في ذلك الأمر.

ظلت الأمور تسير كعادتها ما يقارب الأسبوعين، بلاغات معتادة من سرقة بعض المواشي ونزاعات بين التجار والمستهلكين على أسعار السلع، حتى جاء اليوم الذي بدأ به كل شيء..

دلفت إلى نقطة الشرطة سيدة عجوز متشحة بالسواد، قامتها منحنية بعض الشيء من أثر التقدم في العمر. تفحصتها بعيني لأجدها فاقدة للبصر ولبعض الأسنان أيضًا. كان يساندها حسان، ساعدها في الجلوس على الكرسي الخشبي أمامي ثم تحدثت بلهجة صعيدية:

- سلام عليكم يا باشا.

- وعليكم السلام يا أمي.. خير؟ أقدر أساعدك إزاي؟

- لا مؤاخذة يا باشا.. البهايم بتاعتي..

- مالها؟ اتسرقت؟ ها شاكة في مين؟

- لا ما اتسرقتش.. دي بتموت.

نظرت لها متعجبًا عاقدًا حاجباي، ثم تناولت لفافة من التبغ مشعلاً إياها وأنا أنظر إلى حسان وقد فهم إشارتي، فتحدث بنبرة غليظة:

- يا حاجة أم نعيمة انتِ باين عليكِ جاية غلط، هنا القسم، إنما الوحدة بتاعت البهايم اليمة التانية.. تعالي أوديكِ..

همَّ يمسك بيدها فسحبتها بشدة ثم نهرته:

- جرا إيه يا واد يا حسان! هو أنا عبيطة! أنا عارفة أنا جاية فين كويس.. البهايم بتتقتل يا باشا.

- بتتقتل!!

- أيوة.. وكله من أبو حامد.

- أبو حامد مين؟

- أبو حامد القهوجي، هو ساكن في الدار اللي جنبي، كل يوم أنا بسمعه. أصل أنا دلوقتي مفييش غير ودان.

حاول حسان أن ينهي حديثها، فأوقفته بإشارة من يدي ثم تحركت من مقعدي لأتوجه وأجلس على الكرسي القابع أمامها قائلًا:

- بيعمل إيه أبو حامد يا حاجة؟

- والعياذ بالله بيحضر أرواح.

تعالت ضحكاتي حتى وصلت إلى أقصاها داخل قسم الشرطة، وتنبه لها ذلك العسكري المتقوقع خلف مكتبه في مدخل نقطة الشرطة، ظلت ضحكاتي تتعالى في خضم نظرات تعجب شديدة من

حسان حتى تحدثت قائلًا:

- تحضير أرواح إيه يا حاجة وخرافات إيه؟

- عمرها ما كانت خرافات يا ابني.

- بصي يا أمي، نصيحتي ليكِ تشوفى دكتور لو عندك مشكلة يحلهالك.

تغيرت قسمات وجهها وازدادت نبرتها غضبًا قائلة:

- أنا مش مجنونة يا ابن علام!

جحظت عيناي وأصابني قليل من التوتر وتغيرت نبرة صوتي لتصبح أكثر حدة متساءلا:

- وانتِ عرفتِ اسم عيلتي منين؟!

- نفس الريحة دي كنت بشمها في أبوك جعفر علام، ما تستغربش أوي كدا، أنا حسان قالي اسمك قبل ما أخشلك.. سميح جعفر علام، من عيلة علام أكبر عائلات سوهاج أبوك كان متجوز من عندنا هنا في الكفر، يعني إحنا نعتبر نسايب.

- ماشي يا حاجة أيًا كان، أنا ما بصدقش في الخرافات دي.

تحركت لأعود خلف مكتبي بجملتي الأخيرة، ثم أردفت موجهًا حديثي إلى حسان:

- روّح الحاجة يا حسان وشوف لو محتاجة حاجة دي طلعت من العيلة.

ساعدها حسان على النهوض، سارت بخطواتها البطيئة تجاه الباب ثم توقفت ووجهت نظرها إلى قائلة:

- خد بالك من نفسك يا ولدي.

***

دقت الساعة لتعلن منتصف الليل، الظلام كان حالكًا في منزل السيدة العجوز، كانت تسير تتحسس الحائط في الظلام بيدها المرتعشة ذات التجاعيد، ظلت تبحث عن كلوبها الصغير الموضوع على المنضدة الدائرية الصغيرة، ثم أشعلته بعود كبريت. تعرف مكان كل شيء بالمنزل رغم فقدانها لبصرها، كانت السيدة العجوز تعيش وحيدة، لا يوجد ما يؤنس وحدتها في ليالي الشتاء الباردة، دائمًا ما كانت تجلس شاردة تفكر في أمور الدنيا، تحديدًا بعد منتصف الليل، حين تهدأ الأصوات من حولها، فتتغنى ببعض أغانيها التي كانت تنشدها حين كانت تساعد زوجها في حرث الأرض قائلة:

سُوقِ البَهَايم عَادْ يا حرَّاتي

سُوق البهايم وعدِّل المحراتي

لا بيع بقرتي وأشتري لي ثُوري

دا الثُّورِ بِحْمَل القسا والجُـوري

بمجرد انتهائها من ترديد أغنيتها شعرت برياح عاتية تقتحم خلوتها وقد انطفأ نور الكلوب جرَّاء ذلك الأمر، نهضت وهي تلملم شالها الأسود، التقطت أنفها رائحة غريبة امتعض لها وجهها، ثم بدأت

تتحسس الحائط عائدة إلى غرفتها لتحتمي من تلك البرودة، ولكنها اصطدمت بشيء ما، تحسست بيدها لتشعر بملمس جسد مُشعر، فشهقت وهي تعيد يدها إليها ثم همَّت تُبسمل، ولكن وُضعت يدٌ سوداء ذات مخالب على فمها، ثم خرت قواها وسقطت أرضًا، حين مرر الكيان الأسود أحد مخالبة على رقبتها ليظهر سليلٌ من الدماء.

دلف إلى المنزل رجل يرتدي بذله سوداء وقفازات، كانت ملامحه غير واضحة بسبب الوشاح الذي يضعه يغطي أنفه وفمه، لم يظهر سوى عينيه البنيتين، غرس يديه ذات القفازات بين صدرها شاقًا إياه ليخرج قلبها وينهض به حامله، وقطرات الدماء تنساب من بين يديه، ثم نظر إلى الخلاء أمامه بينما ينبعث شعور بالرضا من عينيه، ثم انصرف من منزل السيدة العجوز.

***

على أحد جوانب ضفاف النيل، يتمايل العشب محتضنًا النسيم العليل عند بزوغ الفجر وبداية ميلاد الشمس من مشرقها، كان يسير شاب ذو جلباب صعيدي وأمامه كلب صغير، يدندن الشاب وتتراقص آذان حيوانه الأليف دليلًا على شعوره بالسعادة من صوت رفيقه الحنون. توقف الكلب فجأة ونظر إلى الجهة الأخرى ثم هرول مسرعًا ليعبر الجسر الصغير ومن ورائه صاحبه، علا صوت نباح الكلب حين توقف أمام منزل كان بابه مفتوح على مصراعيه. دلف الكلب إلى المنزل ومن خلفه صاحبه ينهال عليه بالسباب، والأول غير مبالٍ، جحظت عين الشاب حين وجد الكلب يدور حول جثة السيدة العجوز والدماء تغطي كامل جسدها، فصرخ الشاب مهرولًا

إلى الخارج، أما الكلب الصغير فظل واقفًا ينظر إلى الحائط المغطى بالدماء.

***

يجلس حسان أمام نقطة الشرطة يداعب شاربه الكث بيد، وباليد الأخرى يمسك كوبًا من الشاي. نظر بعيدًا ليجد شابًا يهرول تجاهه والعرق يبلل كل أنحاء جسده، ارتمى الشاب أمام قدم حسان فساعده على النهوض وجلس الشاب، نظر له حسان ليجد علامات الفزع تعتلي وجهه وصدره يعلو ويهبط سريعًا.

- جرا إيه ياض يا محروس مالك؟

- الحقني يا عم حسان..

قالها بصوت متقطع منهك

- فيه إيه؟

- خالة أم نعيمة..

- مالها؟

- اتقتلت..

شهق حسان وسقط منه كوب الشاي مكسورًا، ثم هرول مسرعًا داخل النقطة ومنها إلى مكتب سميح علام، طرق الباب ولم ينتظر علامة السماح بالدخول، فتح الباب ليجد سميح جالسًا خلف مكتبه فصرخ به حسان قائلًا:

- الحقنا يا باشا.. فيه جريمة قتل حصلت في البلد.

***

يقف سميح وحسان في منزل السيدة العجوز، يحاول سميح أن يجمع الأفكار وهو يتفحص الجثة الملطخة بالدماء أمامه، أما عن حسان فكان مستندًا إلى أحد الحوائط وهو يجهش بالبكاء، فتحدث إليه سميح قائلًا:

- شد حيلك يا حسان واجمد كدا..

- الخالة كانت غالية علينا كلنا يا باشا.. مين بس اللي ممكن يعمل كدا؟

أشعل سميح لفافة من التبغ ثم عاد موجهًا كلامه إلى حسان قائلًا:

- فين دكتور الوحدة الصحية؟

- شيعنا له يجي يا باشا.

دلف إلى المنزل شاب أسمر اللون قامته متوسطة، يحمل على أنفه عوينات ضخمة، وبيده حقيبة مستطيلة، يرتدى قميصًا أبيض اللون وبنطالًا. تقدَّم إلى سميح يصافحه:

- أنا دكتور حسام.

- سميح علام.

- أهلًا وسهلًا بحضرتك.

- ممكن تشرح لنا دا إيه؟

اقترب الطبيب من الجثة بعد أن ارتدى قفازًا أبيض، ثم جثا على ركبتيه وبدأ يتفحص الجثة. لحظات قليلة ثم نهض موجهًا حديثة إلى سميح قائلًا وهو يعدل من وضع نظارته الطبية:

- الجثة مدبوحة بآلة حادة، وتم انتزاع القلب من مكانه.

عقد سميح حاجبيه معقبًا:

- يعني إحنا قدام قاتل وكمان مجنون! ما هو مافيش حد عاقل ممكن يعمل كدا!

- مش شرط بني آدم..

قالها حسام:

- تقصد إيه؟!

- الجرح حوالين العنق مش بسكينة، دي مخالب، وارد جدًا يكون ذئب أو حيوان مفترس من أي نوع، وكمان الحاجة أم نعيمة كانت كفيفة، هاجمها من غير ما تأخذ حذرها وتحاول تهرب منه.

اقترب حسان من مكان وقوفهما قائلًا:

- بس إحنا ما عندناش حيوانات مفترسة هنا!

- هي مش جت امبارح وقالت إن بهايمها بتتقتل؟ جايز الحيوان اللي كان بيهاجمهم هو نفسه اللي قتلها!

- على العموم يا فندم دا اللي واضح بشكل مبدئي، والطب الشرعي هيوضح لنا أكتر.

- تمام يا دكتور شكرًا ليك.

همَّ الطبيب بالانصراف، وأمام باب المنزل كان يقف رجلٌ ذو جلباب صعيدي ووجهه مزين بلحيه بيضاء يتكئ على عصا سوداء قاتمة طويلة وملامحه غليظة، دلف إلى المنزل فدُهش حسان وتوقف عن نحيبه حين وقف أمام سميح يحيه.

- إزيك يا سميح باشا؟ سامحني مالحقتش أرحب بيك.

اقترب منه سميح ليقفا في وضع المواجهة متساءلا باستهزاء:

- وانت تبقى مين؟

- أنا أبقى الحاج أبو حامد، شيخ البلد وكبيرها. كان نفسى نتقابل في ظروف أحسن من كدا.

- تعرفها؟

- هي مين؟

- أم نعيمة!

- ومين مايعرفش الخالة أم نعيمة! دي أقدم من الكفر كله.

قالها وهو ينظر إلى جثمانها الراقد أمامه أرضًا ثم تساءل:

- عرفتوا مين اللي عمل كدا؟

- مسألة وقت وهنجيبه.

- ياما قولتلها إن الديب اللي بينهش بهايمك لو حسك بتقفي في

طريقة هينهشك انتِ كمان، بس ماكانتش بتسمع الكلام.

- كله هيبان يا أبو حامد.

- أكيد أكيد.. أسيبكم تشوفوا شغلكم.

أدار ظهره للخروج من المنزل فاستوقفه سميح مناديًا:

- أبو حامد..

- خير يا باشا؟

- انت كنت جاي هنا ليه؟

- جاي أشوف اللي حصل يمكن أقدر أساعد.

- طيب أنا هحتاجك تعدي عليا في النقطة النهاردا شوية.

- مالهوش لزوم نزعجك، لو عايز تضايفني اعتبر واجبك وصل.

- لا انت فهمت غلط.. انت متهم بقتل الخالة نعيمة.

جحظت عين أبو حامد ومن ورائه حسان، ولم ينطق أحد ببنت شفة، ثم توجه أبو حامد خارج المنزل سائرًا وحيدًا يفكر في اتهام سميح له. ما لبث أن ابتعد قليلًا عن منزل السيدة العجوز حتى بدأ يتحدث:

- شكله جاي يحشر نفسه في اللي مالهوش فيه. بس أنا خلاص قربت أوصل لمرادي، ومش هاييجي حتة عيل يقف قصادي، وانتم أكيد مش هتسيبوني، أنا ياما خدمتكم، آن الآوان تخدموني..

ظهر من خلف أبو حامد كيان أسود ذو عين حمراء يسير وراءه، وضع يده على كتف أبي حامد يستوقفه، ثم تحرك ليقف أمامه وتحدث بصوت أجش قائلًا:

- أنت ستخدمنا لآخر عمرك، وحتى بعد أن تموت، سوف تظل خادمنا.. نحن لا نخدم أحدًا.

قال جملته الأخيرة وقد كشر عن أنيابه وازداد احمرار عينيه.

- ما كنتش أقصد.. بس سميح دا...

استوقفه الكيان قائلًا:

- سميح علام.. سميح علام.. سميح علام...

ردد اسم سميح ورده معه أصوات أخرى غير موجودة، وبدأ الصوت يتعالى وكأن المكان يهتز من شدة ارتفاع الأصوات.

***

مر ما يقرب من الساعتين على انتظاري لحضور أبي حامد أمامي، نهضت من مجلسي خلف المكتب وتوجهت إلى النافذة، ثم أشعلت لفافة من التبغ وأنا أنظر إلى المساحات الخضراء أمامي. بنصف جذع مائل تدليت به من النافذة لأنظر يمينًا ويسارًا باحثًا بعيني عن المقهى المجاور لنقطة الشرطة، حتى وجدته، مقهى صغير مسقَّف بعيدان من الخوص. نظرت أكثر مدققًا لأجد صبيًا صغيرًا قصير القامة يقوم بخدمة الأشخاص الجالسين، لم يكن يشبه حامد الذي جاءني مسبقًا. عدت بجذعي إلى الداخل، ولكن استوقفني حامد

الذي يقف متواريًا وسط العشب الأخضر. رفعت يدي أشير له أن يأتي، ولكن جاءني الرد بميل رأسه يمينًا ويسارًا، تعني «لا»، انتابتني بعض القشعريرة في جسدي لا أعلم لماذا حين اختفى وسط العشب الأخضر.

عدت لأجلس خلف مكتبي، ولكني وجدت حامد واقفًا أمامي والدماء تسيل من جميع أنحاء جسده، ويداه الاثنتان كما لو أنهما بُترتا بأحقر وأردأ أنواع الآلات الحادة. كانت الدماء تسيل من فمه حين تكلم قائلًا بصوت جاء من أعماق الجحيم:

- أنقذني من أيديهم يا سميح!

شعرت بدقات قلبي تتزايد وسخونة تجري في جسدي، ما لبث أن صرخ حامد في وجهي وهم بالانقضاض عليَّ، فصرخت أنا الآخر وشعرت بمَن يدفعني لأجلس على الكرسي من خلفي، وأنا أصرخ قائلًا:

- ابعد عني.. انت عايز مني إيه؟

ليأتي الرد من حامد:

- خلصني من بين أيديهم.. انت الوحيد اللي تقدر..

- ابعد عني..

- سميح باشا.. فوق يا سميح باشا!

شعرت أذناي بتغير في نبرة الصوت، لأشيح يدي عن وجهي فأرى وجه حسان عاقدًا حاجبيه متساءلا عما حدث لي لأصل لتلك

الوضعية.

- إيه اللي حصل يا باشا مالك؟

- مافيش، الظاهر إني نمت وحلمت بكابوس.

- دا انت صوتك جايب آخر القسم!

في محاولة مني لتغيير مجرى الحديث نهرته قائلًا:

- فين أبو حامد؟ ماجاش ليه لحد دلوقتي؟

- موجود برا يا باشا.. مستني يدخل.

- خليه يدخل.

خرج حسان ليأتي بأبي حامد، حاولت أن أُلملم شتات نفسي وأتناسى هذا الكابوس المريع، ولكن حين نظرت إلى عقب لفافة التبغ القابع على سجادتي الصغيرة ووجدته ما زال مشتعلًا أدركت أنه لم يكن كابوسًا.

دلف إلى مكتبي أبو حامد، وتقدم إلى الكرسي أمام المكتب الخشبي وتحدث وهو يجلس:

- خير يا باشا؟ اتهام إيه بقى اللي سيادتك موجهه ليا؟

- قولي الأول.. انت شغلتك إيه؟

- أنا عدم المؤاخذ تاجر مواشي.. بهايم.

- جميل، إيه علاقتك بقى بالقتيلة؟

- علاقة جيرة طيبة وكان فيه بينا شغل.

- شغل؟!

- أيوة.. أنا كنت براعي البهايم بتاعتها وبجيبلها كمان حبوب العلف.

- وكنت بتقتل مواشيها كمان!

- أقتل مواشيها! وأنا هعمل كدا ليه؟

- بقولك إيه.. ما تجيب من الآخر وتقولي انت بتعمل إيه وإيه طبيعة شغلك؟

نظر أبو حامد إلى باب المكتب ثم همَّ يغلقه جيدًا وعاد ليجلس أمامي مرة أخرى وأزاح وشاح رأسه ثم تحدث قائلًا:

- شغلي هو نفس شغل الحاج والدك جعفر علام.

انعقد حاجبي ووقفت مشدوهًا قائلًا:

- وانت تعرف أبويا منين؟!

- أبوك هو أصل الشغلانة، وهو اللي علمهالي كمان، ودفعت تمنها غالي أوي يبني.

- انت تقصد إيه؟

- أقصد إن انت أكيد واخد كرماته، مش انت نزلت البير؟

شعرت ببعض من قطرات العرق بدأت في التجمع على جبيني، ثم تناولت لفافة من التبغ أشعلتها ووجهت حديثي إليه متساءلا وأنا

أرجو ألا أسمع الجواب الذي يجول في خاطري:

- بير إيه؟

- بير براهم.

أغمضت عيني تلقائيًا وأنا أستجمع تلك الحادثة القديمة، ولكن سرعان ما طرد الأفكار من رأسي وعدت إلى حديثي:

- انت مين بالظبط وتعرف كل دا منين؟

- لازم تفهم يا سميح إن إحنا مش لوحدنا في الكون دا، وإن أنت بالذات مش لوحدك.

قالها وهو ينظر حولي ثم عاد قائلًا:

- دي البداية بس يا سميح.. البداية.

- انت قتلتها ليه؟

- كانت لازم تموت عشان شافت كل حاجة.

- شافت! دي كانت كفيفة شافت إزاي؟

- شافت بقلبها المؤمن مش بعينيها، بس أنا ماكنتش عايز أعمل دأز

شعرت بتغير في نبرة صوته، شعور بالندم وحزن مصحوب بانكسار وهو يتابع قائلًا:

- أنا مش عارف أنا بقولك كل دا ليه، بس هما أمروني إني أعمل كدا، إني آجي وأعترف بكل حاجة.

- هما مين؟

- أهل البير.

- ما تجيبش سيرة البير تاني!

- أنا قتلت ابني حامد، قتلته عشان هما كانوا عايزينه قربان عشان يطلعوا لي الأثارات اللي تحت الأرض، حامد كان عنده القهوة اللي جنب القسم، كان شاب زين عفى يحب الخير ويحب الناس.

- حامد القهوجي يبقى ابنك!

- أنا حاولت أرجعه تان،ي لكن ما عرفتش، دم البهايم بتاع أم نعيمة ماكانش نافع، فحاولت بدمها هي، لكن برضو مانفعش..لازم تكمل اللي أبوك بدأه يا سميح، وهتبقى سيد العالم دا كله.

- انت مجنون.. أكيد مجنون وعايز تجنني معاك. مفيش حاجة اسمها كدا، انت قتلت ابنك وقتلت ست غلبانة مالهاش أي ذنب في أي حاجة وجاي عايزني أصدق خرافاتك!

- دي مش خرافات، والأيام هتثبتلك دا، هجيلك قريب ولازم تكون مستعد تقابله..

- هو مين؟!

- خلي بالك هو مش سهل، خد حذرك ولازم توافقه على كل حاجة.

وجدته يلتقط ورقة بيضاء من فوق المكتب، وأمسك بالقلم، وبدأ يكتب. لم يأخذ وقتًا كبيرًا حتى انتهى، ثم همَّ ناهضًا ووقف في

منتصف الغرفة ونظر إليَّ قائلًا:

- خلص ابني وادفنه دفنة تليق بيه، وهو هيبطل يظهر لك، هو مدفون تحت البيت عندي.

ثم دون مقدمات، غرس القلم في رقبته، لتندفع نافورة من الدماء ويتشنج جسده وتخر قواه وتخرج روحه من جسدها. ناديت على حسان الذي دلف إلى الغرفة، أمرته أن يأتي بالطبيب سريعًا وتوجهت أنا إلى الورقة التي كتبها لأجده خط بها اعترافًا كاملًا بممارسته طقوس السحر الأسود، وأنه هو من قتل ولده حامد والسيدة العجوز.

***

ما لبث أن أغلقنا تلك القضية الغريبة حتى توجهت إلى منزل أبي حامد، أنا وطبيب القرية ومعي قوة من الشرطة، لأجد حامدًا واقفًا بدمائه التي تنساب من جميع أنحاء جسده، كان يقف في منتصف المنزل، حفرت لما يقرب من الساعة وأخرجت جثته، أو بالأحرى ما تبقى منها. بعد أن توجهت إلى المقابر وأتممت مهمة الدفن، نظرت على مرمى بصري لأجد شخصًا يرتدى بذلة سوداء وقفازات ووشاحًا يغطي نصف وجهه، حين تقدمت تجاهه اختفى تمامًا.

جلست داخل مكتبي وأنا أفكر ما علاقة أبي، جعفر، بأبي حامد والبئر؟ وما الذي جعله يطاردني بعد كل تلك السنوات؟

حقًا، لا أريد أن أفكر الآن إلا في شيء واحد، أنني لن أكمل خدمتي في تلك القرية. أمسكت بالقلم وورقة بيضاء ثم بدأت في كتابه طلب نقلي من تلك البلد الملعونة.

الفصل الرابع
خيالات القصر

أنهى سميح حديثة غير المقنع لحسين عن قضيته الأولى، والتي جعلته يصل إلى حالته تلك، ثم تبع إنهاء الحديث بسعالٍ شديد أصابه، فتحرك داسم بخطوات هادئة تجاهه وأخرج منديلًا من جيب بنطاله، ثم أعطاه لسميح الذي تناوله من يده مسرعًا، وبصق فيه الدماء من أثر السعال.

نهضت منة وقد تجرعت بعض الماء الموضوع أمامهم، ثم توقفت عند موضع جلوس سميح قائلة:

- أنا مش قادرة أقتنع بأي كلمة من اللي انت حكيتها.

خرجت الكلمات من فم سميح بنبرة تنم عن إعياء شديد:

- صدقيني، أنا كمان في الأول ماكنتش مقتنع، بس سيبوني أكمل لكم اللي حصل.

ابتسم داسم ووجَّه حديثه إلى سميح قائلًا:

- للأسف يا سميح باشا ،حضرتك لازم ترتاح دلوقتي.

- بس أنا عايز أحكي!

زالت الابتسامة عن وجه داسم وأصبح أكثر جدية، ثم أغمض عينيه وكأنه يحاول أن يكظم غيظة، وكرر جملته مرة أخرى:

- أنا شايف إن دا وقت راحتك يا باشا.

هنا خرج حسين عن صمته وعلت نبرة صوته وتحدث إلى داسم قائلًا:

- انت هنا بصفتك مين وإزاي تكلمه كدا؟

- أنا أهم واحد هنا.

- إحنا ما نعرفكش. سيب ابن عمي يعمل اللي يريحه.

نظر لهم داسم وهو يحمل نفس ابتسامته الجامدة، ثم مد يده إلى سميح ليساعده على النهوض، فتقدم حسين إلى ابن عمومته مادًا يده إليه، وكاد سميح أن يلتقطها ولكن استوقفته يد داسم، فدفعه حسين وكاد يوجه له لكمة قوية، ولكن حال دون ذلك وقوف علي علام ليهدئ من روعهم:

- اهدى يا حسين، خلينا نخلص اللي إحنا جايين عشانه. اتفضل انت يا سميح باشا وبكرة نكمل كلامنا.

أما عن منة فقد قررت أن تغير مجرى الحديث وتخف من حدته قليلًا قائلة:

- هو إحنا هنام فين؟

فأجاب سميح:

- في الدور اللي فوق، الأوض بتاعتكم جاهزة، كل واحد أوضة.

- وانت أوضتك فين؟

تساءل علي.

- أنا بنام في البدروم.

عقد الجميع حاجبيه في استعجاب شديد، ثم اتجه داسم وسميح إلى البدروم.

جلس الثلاثة يفكرون في ما قصَّه عليهم سميح، كانت منة تدون في مفكرتها ما أغفلت كتابته وهي تنصت إلى القصة، أما علي وحسين فكانا ينظران إلى بعضهما البعض ويحتل أعينهم سؤالٌ واحد: ما علاقة جعفر علام بذلك الرجل الغامض؟ وما سر ارتباط قصة سميح بحادثة البئر القديمة؟

وكأن منة كانت تعرف ما يجول بخاطرهم فتساءلت:

- هي إيه حكاية البير دي؟

انتفض حسين ومن بعده علي وتحدث الاثنان في آنٍ واحد قائلين:

- دي حكاية ما تخصكيش.

اتسعت حدقت عينها في دهشة، ثم تنحنحت قليلًا وعادت إلى مفكرتها الصغيرة، فاقترب منها حسين متودِّدًا وتحدث بنبرة هادئة:

- ما تزعليش مننا.

- وأزعل ليه؟ دي حاجة ما تخصنيش.

- صدقيني، حكاية البير دي مجرد خرافات ومش بنحب نفتكرها.

- خرافات إزاي يا ابن عمي؟ طب واللي حكاه سميح!

نهض حسين متوجهًا إلى النافذة وهو يتحدث قائلًا:

- سميح مخبي حاجة كبيرة، والسر كله مع داسم، أنا مش مرتاح له.

- ومين فينا مرتاح له يا حسين! بس بيقولك الممرض بتاعه.

- خلينا نأجل أي استنتاجات لحد ما نسمع باقي الحدوتة.

نهض الثلاثة متجهين إلى السلم الرخامي المؤدى إلى أماكن الغرف الخاصة بهم.

***

بمجرد أن وطئت قدم أنس إلى الفيلا من ذلك الباب الخشبي، شعر برائحة غريبة ونسيم من الهواء البارد الذي يجتاح المكان، لم يستطع أن يرى شيئًا، الظلام حالك، وهناك صوت يشبه صوت الرياح وهي تحرك بعض أوراق الشجر المتناثرة أرضًا.

أمسك حقيبته الخاصة، تحسس بيده باحثًا عن سحابها، ثم فتحها يبحث عن كشافه الصغير، ما لبث أن وضع يده داخل الحقيبة حتى وجده، حاول إنارته ولكن دون جدوى، وبعد عدة محاولات باءت بالفشل استسلم للأمر الواقع وتيقن أنه الآن وحيد مع الظلام. تحسس الحائط بجواره وقرر أن يمشي على هداه وهو لا يعي إلى أين ستسوقه تلك الظلماء، ولكن لا مجال للعودة. استوقفه صوت فحيح الأفاعي الذي غزا أذنيه فجأة.. حاول ألا يستسلم لخيالات عقله وتابع مسيرته، ولكنه انتفض فجأة حين شعر بشيء ما يلتف

حول يديه ويصدر فحيحًا، هنا علم أنه ليس وحيدًا وسط الظلام، وأن ثالثهما أفعى ستقتله بسمها اللعين.

***

دلف علي إلى غرفته وانفرجت أساريره واحتلت ابتسامة بلهاء وجهه حين رأى تلك الغرفة ذات الأثاث الفخم والأريكة الإسفنجية، والسرير الخاص به، فانقض على السرير كالليث الذي لاحق فريسته منذ زمن طويل وقد آن أون الافتراس.

- والله وفلحت يا ابن جعفر!

قالها علي ساخرًا، ثم نهض ليجد أمام سريره الخاص منضدة دائرية ذهبية اللون تحمل في منتصفها طبقًا بيضاوي كبير من الفاكهة، فتناول بعضًا من الثمار وبدأ في التهامها. توقف عن التهامه للفاكهة حين شعر ببروده شديدة تجتاح المكان، وصوت يشبه صوت زمجرة الكلب لا يعلم من أين مصدره. لم يبالِ وظل يأكل بنهمٍ شديد حتى جاءت نسمة باردة أخرى وعلا صوت الزمجرة. نظر عن يمينه فوجد نافذة كبيرة تنسدل ستائرها البيضاء والهواء يحركها، فعلم أن مصدر البرودة من هنا. تقدم إلى النافذة يغلقها، ظل يتقدم ولكن دون وصول. بعد فترة من التقدم وعدم الوصول شعر بالتعب وكأنه سار أميالًا، فتوقف وهو محني الرأس واضعًا كفيه على ركبتيه.

عاد صوت زمجره الكلب يتردد في أذنه، فرفع رأسه ليجد كلبًا ضخمًا أسود ذا نابين وعين حمراء ولعاب سائل من بين فكيه، جحظت عين علي وقد تملكه الرعب حين رأى ذلك الكلب يتقدم

نحوه مسرعًا.

***

جلست منة على الأريكة في غرفتها تتفحص بعينها أرجاء الغرفة وتستعيد في داخل عقلها جوانب القصة التي سمعتها، تحاول استيعاب بعض الأجزاء المبهمة، تشعر وكأنها قد ورطت نفسها في لعبة غريبة، لا تنكر أنها تشعر بالقليل من الخوف، ولكن تمني نفسها بسبق صحفي عظيم ومكافأة ليست بصغيرة من رئيس تحرير جريدتها حين تأتي له بأصل حكاية سميح علام.

قطع حبل أفكارها طرقات خفيفة على بابيها، نهضت بخطواتٍ ثابتة واتجهت إلى الباب، فجاءت الطرقات مرة أخرى، فتحت الباب ولكن لم يكن هناك أحد، أغلقت بابها وهمت تعود لمجلسها، ولكن جاءت الطرقات مرة أخرى، فتحت الباب مسرعة، ولكن ما من طارق. تقدمت خطوة خارج الغرفة، نظرت يمينها فلم تجد أحدًا، أما عن يسارها حين نظرت وجدت حسين علام يسير أمامها تجاه السلم الرخامي، وأشار لهت بيده أن تأتي.

سارت وراءه وهي لا تعلم إلى أين يأخذها، نادت باسمه بصوت هامس وكان هو يكتفي بأن يضع سبابته على فمه في إشارة معناها الصمت، ثم يشير بيده لها أن تتبعه. هبط السلم الرخامي وهي من ورائه، ثم اتجه إلى باب البدروم. هنا أوقفته بأن أمسكت بمعصمه قائلة:

- انت رايح فين؟ هو مش حذرنا من الدخول هنا!

لم تأتِها منه إجابة، ولكن قابل سؤالها بابتسامة ثم فتح الباب ليجدا سلمًا يغوص في قلب ظلام دامس، هبط حسين السلم، أما عن منة فكان قلبها يخفق

بشده وترتعش يديها خوفًا. نظرت يمينها ويسارها خشية أن يراهم أحد، ثم تبعته إلى الداخل.

***

تنتفض أنس فجأة حين شعر بشيء ما يلتف حول يديه ويصدر فحيحًا، هنا علم أنه ليس وحيدًا وسط الظلام، وأن ثالثهما أفعى ستقتله بسمها اللعين. لا يعلم مصدر ذلك الضوء الأحمر الذي طغى على المكان، تمنى لو أنه لم يدخل إلى ذلك المنزل، ولكنه الآن في موقف حيث لا عودة.

تلتف الأفعى حول معصمه أكثر وهو يحاول أن يصرخ حتى ينقذه أحد ما من سكان هذا البيت وهو يعلم جيدًا أن مصيره سوف يكون خلف القضبان، ولكن لا مشكلة لديه، فالسجن أحب إليه من الموت بتلك الطريقة، ولكن لم يكن ذلك أكبر مشاكله، فإن صوته قد حُشر داخل حنجرته ولا يستطيع حتى أن يصرخ.

نظر إلى الأفعى على غرار الضوء الأحمر، فكانت أفعى سوداء تلتف بأقل من نصف جسدها فقط على معصمه، أما باقي جسدها فكان يصل إلى الأرض ويتلوى في انسيابية واضحة، ترفع رأسها لتنظر بعين سوداء في عين أنس ولسانها السام يدخل ويخرج. تقرب وجهها منه، أغمض عينيه وهو ينتظر أن يشعر بلدغتها ويفارق

الحياة، يشعر بأنفاسها ساخنة تقترب أكثر، لقد حانت لحظة موته. فتحت الأفعى فاهها وكادت تلدغه، ولكن صدرت منها صرخة عالية تصم لها الآذان وشعر أن جسدها يُسحب من على معصمه.

استجمع شجاعته وفتح عينيه ليجد جسد الأفعى يُسحب بعيدًا عنه وكأن يدًا خفية ذات قوة تسمك بها وتلقيها بعيدًا. تنفس الصعداء ثم بحث بعينيه عن منقذه، ولكن كان المكان خاليًا من أي شخص آخر غيره.

نظر حوله ليجد نفسه في ممر طويل يقبع في آخره بابًا خشبيًا، اتجه له مسرعًا وقام بإدارة مزلاجه القديم ليفتح بسلاسة ويدلف إلى الباب فيجد نفسه وقد دلف داخل القصر.

***

رفع علي علام رأسه ليجد كلبًا ضخمًا أسود ذا نابين وعين حمراء ولعاب سائل من بين فكيه. جحظت عيناه وقد تملكه الرعب حين رأى ذلك الكلب يتقدم نحوه مسرعًا، فألقى بجسده بعيدًا حين قفز الكلب تجاهه. توقف مسرعًا ونظر خلفه مكان قفز ذلك الحيوان الغريب، ولكن لم يجده، اتجه مسرعًا إلى باب الغرفة، حاول أن يفتحه ولكن الباب لا يستجيب، ثم تجمد الدم في عروقه حين سمع صوت الكلب من خلفه مرة أخرى وهو يتقدم بخطوات هادئة، تملك قلبه الرعب وحاول أن يحطم الباب ولكن دون جدوى، الكلب يقترب منه، الباب يأبى أن يستجيب، رفع الكلب مخالبة عاليًا ثم هوى بها على صدر علي ليصيبه بجرح بالغ، فتألم علي وخرَّ أرضًا وشعر أن

الكلب يبتسم وهو يقترب منه مباعدًا بين فكيه.

استيقظ علي فزعًا ليجد نفسه ما زال جالسًا على الأريكة يمسك بثمرة من الفاكهة، نظر حوله فلم يجد شيئًا ولم يجد الكلب المسعور معه في الغرفة، نظر إلى النافذة فوجدها مغلقة، فعلم أن ما رآه كان محض كابوس ليس إلا. تنفس الصعداء وعاد إلى التهام فاكهته وهو لا يعلم أن ذلك الكلب كان يقف من وراء النافذة يراقبه بعينه الحمراء.

***

دلفت منة من وراء حسين إلى السلم المؤدي إلى البدروم، حاولت أن تنادى عليه مرات عديدة حتى يعودا إلى غرفهما مرة أخرى، ولكن لم يستجب لها. سرعان ما انتهى الظلام حتى وجدا أنفسهما في مكان كبير لا يوجد به سوى سرير كبير يأخذه سميح علام مضجعًا له، اقترب حسين من سميح الغائص في نومه، ثم رأته منة يحكم قبضته على رقبته، همت مسرعة لتحاول منعه:

- انت بتعمل إيه؟ انت اتجننت؟ سيبه يا حسين!

نظر لها حسين غاضبًا وقد تحولت عيناه إلى اللون الأحمر قائلًا:

- من دلف إلى البئر أولًا هو من يموت أولًا.

عادت منة إلى الوراء خائفة ثم تابع حسين قائلًا:

- الموت لعائلة علام، لا يجرؤ أحدٌ على أن يتحدى أهل البئر.. الموت لعائلة علام..

ثم عاد يحكم قبضته مرة أخرى على رقبة سميح، فقررت منة أنها سوف تعود لأعلى لتحضر المساعدة، فعادت مسرعة إلى السلم المظلم ولكن التوت قدمها في الظلام بعد أن صعدت بضع درجات، لتسقط عائدة إلى أسفل وقد ارتطم رأسها وكان آخر شيء رأته أقدام بخطوات ثابتة، رفعت عينيها لترى من هو صاحبها ولكن لم تستطع.

***

حل الصباح على منزل سميح علام، الجميع نائمون في غرفهم، يتحرك داسم في خطوات هادئة ببذلته الأنيقة وابتسامته التي لا تفارقه ليقرع على كل باب من الأبواب الثلاثة، ثم يلقي ورقة مطوية صغيرة داخل الغرفة.

همَّ حسين بالنهوض من نومه حين سمع قرع الباب، نظر ليجد ورقة مطوية فأمسك بها وقرأها: «سميح باشا مستنيكم كمان ساعة».

تحرك حسين متجهًا إلى النافذة في غرفته، فتحها وأخذ زفيرًا كبيرًا ملأ صدره بالهواء النقي، ثم نظر بعينيه يتفحص الحديقة الخاصة بالفيلا، وقعت عينه على البئر وسط الحديقة، ظلَّ ينظر له مدة طويلة، والذكريات تزاحمت في عقله. إنه يتذكر كل شيء، وكأن الأمر كان البارحة، يسمع صوت سميح وهو يصرخ بهم أنهم يجب ألا يلعبوا عند ذلك البئر، صورة الخالة براهم وهي تنظر مبتسمة، عيون حمراء كثيرة، طفل صغير يبكي خوفًا، سقوط حسين في البئر، علي الذي بلَّل بنطاله...

قطع تلك الذكريات صوت طرقات الباب، تقدم إليه يفتحه ليجد علي ومنة يقفان أمامه، يعتلي قسمات وجه منة نوعٌ من الرعب، أما علي فكان يقف مبتسمًا ينتابه بعض القلق. دلفا إلى الغرفة ثم جلسا، وتحدثت منة متساءلة:

- هو انتم نمتوا كويس؟!

أجاب حسين:

- عادي.

- وانت يا علي؟

تساءلت منة.

- أنا شوفت كابوس فظيع.

- حسين، انت نزلت البدروم امبارح؟

عقد حسين حاجبيه متعجبًا من تساؤل منه:

- أكيد لا، أنا أصلًا كل ما أحاول أخرج من الأوضة امبارح ألاقي الباب مقفول.. بتسألي ليه؟

- يبقى كان كابوس مش أكتر، بس إزاي؟ أنا كنت حاسه إنه حقيقة!

- هي الكوابيس كدا، لما بتطولي فيها بتحسي إنها حقيقة، وإنك عمرك ما هتخرجي منها.

- تفتكروا سميح هيموت امتى؟

قالها علي، فنظر له الاثنان في تعجب شديد، فحاول أن يصلح ما قاله:

- لا أنا ما اقصدش، بس يعني بصراحة العز دا طلع حلو أوي يا حسين يا ابن عمي.

تحرك حسين ليتوسطهم متحدثًا:

- القصر دا مش طبيعي، فيه حاجة غريبة، الموضوع مش موضوع ظابط حقق في جرائم غريبة، الموضوع أكبر من كدا.

- تفتكر يكون إيه؟

تساءلت منة.

- دا اللي هنعرفه مع الوقت، ودلوقتي سيبكم بقى من الكوابيس بتاعتكم ويلا بينا ننزل.

تقدم كلٌ من حسين ومنة إلى الخارج، وتبعهم علي الذي توقف واضعًا يده على صدره متألمًا، ففك أزرار قميصه ليجد أثرًا لجرح يشبه المخالب، فعاد بذاكرته إلى الكابوس الذي راوده بالأمس، ليتذكر مخالب الكلب المسعور وهو يخرجه، فانتابه الرعب قليلًا، ثم أغلق قميصه على صدره وهبط معهم إلى أسفل.

***

توجه داسم إلى السرير الخاص بسميح ليساعده على النهوض، ثم حدثه سميح قائلًا:

- كل حاجة ماشية تمام.

- أكيد.. انت معاك داسم.

- ودا اللي مخليني متأكد إني هوصل للي أنا عايزه.

- وأخبار نومهم إيه؟

- أنا كنت معاهم في أحلامهم بنفسي يا سميح.

- وحسين؟!

لم يتلقَ سميح إجابة، فنظر له غاضبًا:

- حسين.. عملت معاه إيه؟

- حسين مش لوحده يا سميح.

- يعني إيه؟

- يعني اللي خرج معاه من البير مش سايبه لحد دلوقتي، زي ما أنا ما سبتكش بالظبط.

- الموضوع مش لازم يطول أكتر من كدا.

- ما تقلقش.

تحرك الاثنان تجاه السلم صاعدين إلى أعلى، ثم توقف سميح ونظر حوله وأغمض عينيه ثم فتحهما مسرعًا:

- إحنا مش لوحدنا في القصر، فيه حد هنا معانا.

- سميح، أنا مش عايزك تقلق، كل حاجة أنا عامل حسابها.

***

جلس الجميع في الغرفة ذاتها، أخرجت منة نوتتها استعدادًا لتدوين باقي القصة، بدأ سميح الكلام قائلًا:

- بعد اللي حصلي مع أبو حامد وكلامه الغريب عن عمك يا حسين قولت دا كان راجل مجنون ودا موقف وعدى، لكن الحكاية اتطورت لأكتر واكتشفت فعلًا أنا أكون مين. لما اتنقلت مكان تاني، نقطة في الأرياف حرفيًا مافيهاش حد غيري، أنا وشاويش تاني معايا.

- إزاي يعني؟ استحالة قسم مايكونش فيه حد!

قالها حسين مستنكرًا:.

- القسم دا كان جنب المقابر، كل الناس كانت بتخاف، مش ببالغ لو قلت إن الظباط والعساكر لما كانوا بيرفضوا أمر النقل والشغل هناك كانوا بيتهددوا إنهم هيتسجنوا أو هيسرحوهم من الخدمة. هما بقى كانوا بيفضلوا دا عن إن هما يخدموا هناك.

- ليه يعني دا كله؟

تساءلت منة:

- القرية كان اسمها أرض الأموات، قرية ماكانش بيعيش لها أطفال بسبب أمنا الغولة.

- أمنا الغولة!!

قالها علي ثم تابع:

- مش أمنا الغولة دي يا حسين اللي كان بيخوفنا بيها عمي جابر أبوك الله يرحمه عشان ننام وإحنا صغيرين؟

- ما طلعتش حكايات يا علي.

توقف سميح ثم اتجه إلى النافذة ناظرًا إلى البئر قائلًا:

- أنا شوفت الغولة يا ولاد عمي.

الفصل الخامس

القضية الثانية

أمنا الغولة ـ السقوط الثاني

كان الغريب كلامه منمق مرتب، يحاول في كل عباراته أن يطمئن قلبه، اعتدل في جلسته بعد أن كان يجلس منحنيًا قليلًا، ثم قال:

- الشيطان كائن ضعيف وجبان ويستغل خوفنا منه عشان يتسلل لينا، الخوف من مواجهة هي اللي بتخليه يتحكم فينا.

تنفس الصعداء ثم تابع:

- الإيمان ثم الإيمان، من لازم تقوى إيمانك وتثق بقلبك وتكون متأكد إن طريق الشيطان مش هو طوق النجاة.

***

تشير الشمس بقرصها ملوحة بالوداع لتستقر في مغربها، ليحل محلها بدايات ليل هادئ ونسمة هواء باردة تداعب وجوه المارين، الأطفال يلهون أمام المنازل مهتدين بضوء مصباح صغير معلق أمام كل منزل.

مر على نقلي إلى هذه القرية ما يقرب من الثلاث سنوات، كانت الأوضاع هادئة تمامًا، أكاد أجزم أني كنت لا أعمل هنا، في قرية طناش بالقرب من محافظة الجيزة كانت خدمتي. أجلس آناء النهار متقوقعًا خلف مكتبي الخشبي حتى يحل الغروب، وتهدأ حركة

الناس في القرية، ويأتي إليَّ العسكري بفنجان القهوة الخاص بي، فأترجل عن مكتبي وأجلس أمام نقطة الشرطة، أستمتع بلفافة من التبغ وأنا أنظر إلى الأطفال وهم يلهون أمامي. أظل أتابعهم حتى يأتي موعد آذان العشاء، ثم يحدث ما يحدث كل ليلة، هذا ما أراه طبيعيًا، ولكن سكان القرية يظنون أنهم ملعونون!

كانت اللعنات تصاحبني منذ الصغر، ولقد بدأت أقتنع أنني من أصاحبها، لا أريد أن أبتعد عن صلب الموضوع. أمام نقطة الشرطة، كانت تقبع المقابر ظلام دامس يحيطها دائمًا، لا أكاد أبالغ حين أخبركم أن في وضح النهار تشعر أن هذا المكان تحيط به الظلمة، من الطبيعي أن تكون لدينا رهبة من القبور ومن الموت، ولكنني لم أكن أهابها.

في ذات ليلة، بعد أن تجرعت القهوة وعدت إلى مكتبي أطالع بعض الروايات، وجدت العسكري يستأذن للدخول، فإذ بداسم يتبعه، ولكن لم تتغير هيئته عن الآن. بذلة أنيقة سوداء، بشرة ناصعة البياض، ابتسامته لا تفارق وجهه، استأذنني الجلوس فسمحت له بذلك، سرعان ما بدأ حديثة قائلًا:

- أنا جاي ومعايا رسالة مهمة ليك يا سميح باشا.

- رسالة إيه؟ ومن مين؟!

تساءلت متعجبًا، فأجابني بهدوء مبالغ فيه:

- من والدك جعفر علام.

نهضت وقد تسللت مشاعر جمة إلى صدري، خوف وقلق ورعب، العرق بدأ يتصبب من جبيني، حاولت أن أهدأ ولكني فشلت، فنهرته قائلًا:

- اطلع برا.. أنت أكيد مجنون!

- اهدى يا سميح باشا.. اسمعني...

- أسمعك إيه؟ أنا أبويا مات من خمس سنين، وانت جاي تقولي معاك رسالة منه.. طب إزاي؟

أجابني وما زال يحمل ما أسميتها ابتسامة بلهاء:

- أنا وسيط روحاني، أنا بتكلم مع الأموات يا سميح.

تعالت ضحكاتي كثيرًا ثم عدت إلى جديتي مسرعًا:

- بتتكلم مع الأموات! طب بتكلمهم بصفتك مين؟

- تحب تجرب؟

- أحب أوي.

نهض يعدل من وضع الكرسي الخشبي الجانبي ليضعه أمام المكتب مباشرة، ثم أغمض عينيه وفتحهما بعد لحظات قائلًا:

- أخبار الخالة براهم إيه؟

- وانت تعرف الخالة براهم منين؟!

- أنا ما اعرفهاش، بس والدك حكى لي عنها لما كلمته.

- انت أكيد مش بتتكلم جدا! وبعدين رسالة إيه اللي أبويا هيبعتها لي معاك؟

همَّ واقفًا، ثم تحرك ليقف إلى جانبي قائلًا:

- أبوك سايب لك ورثك معايا.

- ورث! ورث إيه؟

- كنز البير.

حاولت أن أتمالك نفسي رغبةً مني في فهم ما يدور في رأس ذلك المخادع، أو ما ظننته كذلك في بادئ الأمر ثم تابع قائلًا:

- اللي أقدر أقولهولك إنك موهوب يا سميح، انت تقدر تكشف الحقائق المستخبية، تعرف الكذاب من الصادق، الظالم من المظلوم، الجاني من المجني عليه. موهبتك دي أنا أقدر أنميها لك لحد ما أخليك أكفأ وأشطر ظابط في الداخلية.

كان لوقع الكلام على مسمعي نغمة خاصة، نغمة جعلتني أريد أن يحدث ذلك الأمر، أريد أن أكون ذلك الرجل، ولكن راودني السؤال عن كيفية حدوث ذلك، وكأن داسم يقرأ أفكاري، فأجابني عن السؤال الذي راودني قائلًا:

- أنا هخليك تشوف أبوك وهو بنفسه اللي هيعلمك ده.. نتقابل عند المقابر وأنا أخليك تكلم أبوك.

- بس إزاي وأنا أبويا مش مدفون هنا أصلًا؟

نظر إليَّ مبتسمًا قبل أن يغادر مكتبي قائلًا:

- الأرواح الطيبة سهل العثور عليها.

خرج من مكتبي وتركني مع حيرتي ولفافة تبغ اعتصرتها رئتي في ثوانٍ معدودة حتى جاءت طرقات العسكري على المكتب وتتبعه سيدة تتشح بالسواد، مذعورة والفزع يحتل قسمات وجهها، وارتمت أمام قدمي تقبلها قائلة:

- الحق بنتي يا بيه.. سايق عليك النبي..

- فيه إيه؟ اهدي بس.. إيه اللي حصل؟

- بنتي يا باشا الغولة خطفتها.

***

أربعة من الأطفال كانوا يلهون أمام نقطة الشرطة القابعة أمام المقابر، ثلاثة من الأولاد وفتاة واحدة، اتفق الأربعة على أن يلعبوا لعبة الاختباء على أن يستتر أحدهم والثلاثة الآخرون يبحثون عنه. وسارت اللعبة على ما يرام، حتى جاء الدور على صالحة، الفتاة الوحيدة. توارت صالحة عن أنظار أصدقائها، ولسوء حظها اختارت المقابر كمانٍ للاختباء. وقفت صالحة منزوية خلف أحد الجدران القائمة في أول المقابر تبتسم وهي تنظر إلى أصدقائها الثلاثة وهم يبحثون عنها وهي تعلم أنهم لن يتوقعوا وجودها هنا.

بعد فترة قصيرة من الزمن، قررت أن تخرج من مكانها لتفاجئهم أنها فازت في اللعبة وأنهم لم يستطيعوا الإمساك بها، تحركت من

مكانها لتعود إلى قارعة الطريق، ولكن فوجئت بصوت يناديها، إنه صوت تعرفه جيدًا، صوت والدتها. ولكن ما الذي أتى بها إلى هنا!

- صالحة.. بت يا صالحة!

نظرت خلفها وعلى ضوء خافت قادم من القمر رأت والدتها تقف بعباءتها السوداء وملامحها يغطيها الظلام، تحدثت قائلة:

- بتعملي إيه هنا يا صالحة؟

- بلعب ياما مع العيال.

- طب مش كفاية لعب كدا ويلا نرجع البيت!

تحدثت بصوت طفولي يحمل كثيرًا من الإلحاح:

- شوية كمان ياما وهاجي.

- أنا بس خافية عليكِ..

- خايفة عليا ليه؟ ما أنا كل يوم بلعب معاهم!

- الوقت أتأخر.

- ما تخافيش، هرجع قبل أمنا الغولة ما تخطفني.

هنا دنت منها والدتها لتظهر ملامحها في النور الخافت، وجه لسيدة عجوز مشقق يحمل عينًا مفقوءة، والعين الأخرى بيضاء تمامًا، وفم بلا أسنان. مدت يدها التي رأتها مشعرة وذات أظافر طويلة تشبه الساحرات، وتغيرت نبرة صوتها لتصبح خشنة مرعبة وهي تقول لصالحة.

- الغولة خلاص خطفتك يا صالحة..

جحظت عين صالحة وخفق قلبها رعبًا حين قفزت إليها أمنا الغولة لتحتضنها وتقفز بها إلى أحد القبور المفتوحة.

***

تقف أم صالحة ناحية على ابنتها المفقودة، وأنا أحاول أن أهدئها حتى أستطيع أن أفهم ما حدث، تحدثت قائلًا:

- ممكن أفهم غولة إيه اللي بتقولي عليها؟

- يا باشا إحنا بلدنا مش زي أي بلد، دي بلد ملعونة وفيه جنية بتخطف العيال، والله أعلم بتحمل فيهم إيه.

- طب بتخطفهم إزاي؟

- من بعد ما الليل بيليل يا باشا وعيال الكفر اللي برا بيوتهم بيروحوا على دارهم، عشان هي بتطلع من الترب دي بالليل وأي عيل بتلاقيه بتاخده.

- طب ما يمكن صالحة تاهت عن البيت مثلًا!

- تاهت إزاي يا باشا؟ ده إحنا ساكنين في البيت اللي جنب النقطة على طول، وبعدين الواد هاشم شافها وهي بتتاخد.

- وفين هاشم دا؟

- أنا هاشم.

نظرت لأجد طفلًا لا يتعدى التسع سنوات، يقف مرتديًا جلبابًا قصيرًا والخوف يملأ عينيه، فتحدثت بنبرة هادئة لأطمئنه:

- إيه يا بطل شوفت إيه؟

- أنا شوفت صالحة واقفة بتتكلم مع واحدة هنا.

وأشار بيده تجاه المقابر ثم أردف قائلًا:

- قعدت أنده عليها وهي ماكانتش بترد، ومرة واحدة الست دي حضنتها ونطت بيها في الأرض.

- يا ابني انت متأكد من اللي انت بتقوله؟

- والله دا اللي حصل.

- والنبي يا باشا أحب على إيدك تجيب لي بنتي.

أبعدت يدي التي كادت تُقبلها أم صالحة، ثم ربتُّ على كتفها وتنفست الصعداء وأنا لا أعلم ما الذي يحدث، لقد كنت أعرف أن أمنا الغولة هي مجرد أسطورة لا أكثر، لم أكن أدرك أنه سيأتي اليوم الذي أبحث عنها فيه. أشعلت لفافة من التبغ وأنا أسمع ترديد الأهالي الواقفين عن أن الفتاة لن تعود مثلها كباقي الأطفال، وأن تهديد الغولة ليس بأمرٍ مستحدث هنا، فلن يأتي مَن يغيره الآن.

اقتربت من المقابر قليلًا ناظرًا إليها، هنا وجدت داسم يقف في وسطها مبتسمًا، وأشار إليَّ أن آتي، تقدمت إليه وكنت أسمع تحذيرات من أهالي القرية:

- يا باشا ارجع!

- الصباح رباح..

- خاف على نفسك من الغولة..

شعرت أني أريد أن أُكمل، شيءٌ ما بداخلي يخبرني أن داسم معه مفتاح كل شيء، وسوف يساعدني في حياتي القادمة. تقدمت خطواتي أكثر فأكثر تجاه داسم، لم أكن أدرك حينها أن تلك الخطوات هي بداية لعنتي وبداية لموتٍ بعد حياة. توقفت أمامه قائلًا:

- انت بتعمل إيه هنا؟

لم تأتِني إجابة، وشعرت أن الرياح تزداد وأن المكان يدور من حولي. ازدادت سرعة الرياح أكثر حتى ظننت أن جسدي يتحرك من شدتها، فصرخت قائلًا:

- هتساعدني؟

اتسعت ابتسامته أكثر قائلًا:

- كنت مستنيك تطلبها من بدري.

هنا دفعني بيديه لأسقط أرضًا ويعم الظلام من حولي، ليس لأني فقدت الوعي، ولكن بمجرد أن هوى جسدي وجدت رمالًا تتحرك لتغلق عليّ، فعرفت أني أصبحت حبيسًا داخل أحد القبور.

صاحب الكرامات

تعرضت رأسي لصدمة قوية إثر ارتطامها بالأرض، كنت أشعر أني أسقط من مكان مرتفع، الظلام دامس من حولي، الهدوء مرعب، المكان هنا ليس بضيِّق لأنني استطعت أن أقف على قدمي. سمعت صوت داسم يقول:

- ابدأ طريقك من هنا يا سميح.

- انت فين؟ أنا ليه مش شايفك؟

- أنا خلاص بقيت جواك يا سميح.

- أنا دلوقتي المفروض أعمل إيه؟

- دور على البير.

- لأ.. البير تاني لأ يا داسم.

- البير ابتدت منه كل حاجة وهو اللي هيساعدك تكمل.

انتهى داسم من كلماته الأخيرة ثم غزت المكان رائحة بخور كريهة واشتعلت إضاءة حمراء، نظرت حولي لأجدني داخل مقبرة فارغة، تتخللها ممرات كثيرة ـ لم أكن أعي في أي اتجاه أسير حتى شعرت بيدٍ شيء أمسك برأسي وبدا وكأنه يحملني منها ويسير بي مسرعًا، كانت سرعته عالية، بدأت أتألم من حكم قبضته على رأسي وهو يزداد سرعة. قطع الممرات يمينًا ويسارًا حتى توقفنا في إحدى الغرف، لم أكن أعرف أكلُّ المقابر بهذا الاتساع أم تلك المقبرة فقط!

نظرت حولي لأرى من كان يمسك بي، لم ألحظ منه سوى ذيل مدبب وهو يهرب على الجدران.

في منتصف المقبرة، كان يوجد تابوت خشبي، بدأ يهتز ويُفتح بابه، دقات قلبي ازدادت، صدري يعلو ويهبط، لا أبالغ القول فلقد أردت أن أبكي، أردت أن أعود من حيث أتيت، لا أريد أن أُكمل.

خرج من التابوت أمامي جثة متفحمة شديدة السواد، فكها السفلي يتدلى من جهة اليسار، تحركت تجاهي بعد أن أشارت بيدها إليَّ. حاولت أن أبتعد بخطواتي للخلف، حتى اصطدمت بالجدار، ثعابين كثيرة وحشرات مقززة تشبه الخنافس تأخذ من تجويف عينه ممرات. أغمضت عيني وقد علمت أنها نهايتي، حتى توقف كل شيء وسمعت صوتًا أعرفه جيدًا.

- سميح.. ما تخافش..

- أبويا!

كان صوت أبي، جعفر علام. حين فتحت عيني رأيته يقف أمامي بكامل هيئته وهيبته كما عهدت أن أراه، شاربه الكث، عيناه الغليظة، ولكنه يرتدي زيًّا أسود. تقدمت إليه فاحتضنني بشدة وبادلته أنا بذات الأمر. تحدثتُ وقد ذرفت الدموع فرحًا:

- داسم ما كدبش عليا..

- خليك مع داسم، هو اللي هيساعدك.

- انت إزاي كدا؟ إزاي واقف قدامي؟

- مش كل حاجة ليها تفسير، المهم دلوقتي أنا عايزك تعرف إن نزولك البير ماجاش على الفاضي.

- أنا عايز أعرف ورث إيه اللي داسم قالي عليه؟

- ورثك يا سميح.. انت من خدام البير.

- خدام البير! يعني إيه؟

- البير دا بوابه لعالم تاني، عالم إحنا اللي فتحناه واكتشفناه، إحنا بنخدم أصحاب العالم دا، عشيرة قوية جدًا ومقابل دا بتدينا كرامات نساعد بيها الناس.

- انت ساحر يا أبويا!

- أنا مش ساحر، أنا خادم من البشر وانت كدا. لازم تحافظ على ورثك وما تخليش حد يشكك فيه، وأول مهمة ليك يا بطل إنك لازم تخلص الناس من الغولة.

- انت مخدوع فيا.. أنا مقدرش أعمل دا!

- أمال أنا جبتك هنا ليه؟

اقترب أبي جعفر، ووضع يده على جبيني لأشعر بسخونتها، ازداد صراخي من شدة الألم وهو يستمر في الضغط أكثر فأكثر، بدأت الدنيا تدور من حولي، أرى عيونًا كثيرة، مخلوقات لم أرَها من قبل، قبيحة ودميمة، يدورون من حولي وكأنهم يحتفلون. أما عن أبي، فرأيت وجهه مبتسمًا وعينه تحولت إلى اللون الأسود. أظلمت الدنيا من حولي وفقدت الوعي تمامًا.

أشرقت شمس اليوم التالي لأستيقظ وأجد نفسي ملقى على الطريق أمام المقابر، شعرت أن جسدي منهك ولا أقوى على الحراك، فتوجهت إلى نقطة الشرطة وأصبحت في حصار من التساؤلات عن مكان مبيتي أمس، لم أجب أحدًا، ثم اتجهت إلى المكتب وارتميت بجسدي على الأريكة وغصت في نوم عميق.

مر ما يقرب من الشهر على تلك الحادثة، ولم أسمع عن داسم ذلك خبرًا من حينها. حتى جاء اليوم الذي أصبحت فيه بطل تلك القرية.. دلف إليَّ رجلٌ طاعن في السن، يشكو غياب ولده الصغير. شيء ما بداخلي دفعني تلك المرة، تذكرت كلمات أبي أني مَن سيقضي على الغولة. طلبت من مساعدي في القسم أن يجمع أهل القرية جميعهم في مكان واحد بالأطفال والزوجات والرجال حتى الطاعنين في السن، بالفعل جهز الأمر وتقدمت إليهم حيث كنت واقفًا على مستوى عالٍ لأراهم جميعًا. كنت أشعر أن حركة عيني سريعة جدًا، أبحث بينهم عن شيء لم أعرفه بعد. تحدث قائلًا:

- اللي بيخطف عيالكم حد منكم.

همهمات عالية وسخرية كانت واضحة من بعض الأشخاص، فتكلم أحدهم:

- اللي بيخطف عيالنا أمنا الغولة.

- وأنا ما قولتش غير كدا، هي هنا وسطنا.

ازداد الهمس والهمهمات حتى تساءل أحد الحضور فأجبت بيقين

واضح:

- أنا هقولكم..

تنفست الصعداء ثم أغمضت عيني ولكني كنت أرى، لا أبالغ، كنت أراهم جميعًا، أبحث بعيني المغمضة بينهم، حتى توقفت عيني على امرأة أربعينيه كانت تنظر تجاهي بعيون متسعة والغضب يعتلي قسمات وجهها، رأيت عينيها السوداء، فعلمت تفسير كلام أبي، إنني أستطيع أن أرها الآن. تقدمت إليها مسرعًا، ثم أحكمت قبضتي على رقبتها. ابتعد الجميع من حولنا وبدأت المرأة في الصراخ قائلة:

- مالك بيا يا باشا؟ سيبني!

- هي دي اللي بتخطف عيالكم.

- أنا مين يا بيه؟ دا أنا حتى عيالي كلهم مخطوفين!

أوقفتها ثم تحدثت قائلًا:

- جنية اسمها الغولة، صيادين البشر قتلوا عيالها الغيلان، فقررت إنها تنتقم من البشر كلهم وتقتل عيالهم.

أصوات عالية من الجميع واتهامات بالجنون. أحدهم حاول تخليصها من يدي فأشرت إلى أحد العساكر فأبعده عني، حتى تحدثت قائلة:

- أبوس إيدك سيبني أمشي يا باشا..

- دا آخر يوم ليكِ في العالم دا.

رفعت يدي واضعًا إياها على رأسها لتصرخ هي وأشعر بحرارة تسري في جسدي إلى كف يدي، ومنه إلى رأسها. بدأ جسدها يرتعش وتعالت صرخاتها أكثر وأكثر حتى سقطت أرضًا وما زال جسدها يتلوى، وصدرت منه رائحة كريهة تشبه رائحة الغائط، حتى استكانت وقد تشوه جسدها تمامًا واحترق جلدها، جسد منتفخ وعين سوداء وفك ذو نابين عظيمين.

هلل الجمع فرحين ومنهم من همَّ يحملني على الأكتاف ولقبوني بصاحب الكرامات، أمرتُ بعدها أن تُلقى جثة الغولة في النيل، ثم توجهت إلى مكتبي. كنت أقف أمام المرآة أُصفف شعري وأعدل من وضع ملابسي، فلاحظت بعض التغيرات، وجدت وشمًا طُبع على جسدي من جهة صدري عبارة عن نجمة خماسية حفر بداخلها أرقام وحروف، لم أُعِر لها انتباهًا. أما عن عيني فقد أصبحت مرهقة تمامًا، صداع ينتابني من وقت لآخر، أشعر دائمًا بالنعاس، ففسرت ذلك على أنه تكيف مع قدراتي الجديدة. وأدركت أن محطة رحلتي القادمة سوف تكون في قريتي حيث يجب أن أفعل ما أخبرني به داسم، أن أقوم بزيارة بئر براهم.

طقوس الغريب

وقف الغريب بعد أن طلب منه أن يفعل المثل، ثم جلس متربعًا وقد فعل المثل، ضم راحة يديه ثم دنا بفمه منها وكان يهمس ببعض الكلمات، ثم وضعها مسرعًا على جبينه ليصرخ بعد أن ظهر ضوءٌ مشع يأتي من راحة يده. انتهى الألم حين أبعد راحة يده ثم وقف الشخص الآخر وهرب مبتعدًا، ولكن توقف فجأة حين رأى بعينه مخلوقات وكيانات ذات أشكال قبيحة وأحجام متفاوتة تتقرب منه.

الإضاءة كانت حمراء من حوله، ثم بدأت تصدر صرخات عالية تُصم لها الآذان، جلس القرفصاء واضعًا يديه على أذنيه وصوت الصرخات يعلو، حتى سمع صوتًا يأتي من بعيد ويخترق الصرخات، كان صوت الغريب قائلًا:

- خليلك فاكر دائمًا، انت أقوى منهم.. انت إيمانك اللي يحركك.

ظلت الجملة تتكرر في أذنه حتى صرخ وقاوم الألم الذي يشعر به، ووقف على قدمه رويدًا رويدًا، وأصدر صرخة عاتية أسكتت باقي الصرخات.

***

نظر أنس حوله ليجد نفسه في ممر طويل يقبع في آخره بابٌ خشبي، اتجه نحوه مسرعًا وقام بإدارة مزلاجه القديم ليفتح بسلاسة ويدلف داخل الباب، فيجد نفسه وقد دلف داخل القصر.

المكان مظلم، رائحته كريهة، الأثاث تغطيه الأتربة وعلى جوانب

الحوائط وشباك العنكبوت احتلت زواياها، أمسك مصباحه الصغير وقد أنار تلك المرة، أخذ يتفحص المكان بعينيه على ضوء المصباح الصغير، دلف إلى غرفة كانت تقع على يمينه تحوي منضدة كبيرة عظيمة تآكل خشبها واحتلتها الأتربة. ثم نظر على يساره ليجد غرفة أخرى تحتوي على أربعة كراسٍ، ثلاثة متجاورة متهالكة، أما الكرسي الرابع كان يقبع أمامهم في غاية الجمال مقارنة بباقي الغرفة.

عقد أنس حاجبيه وهو يفكر أين الأنتيكات والتحف التي وُعد بها؟ ماذا سيسرق من هنا؟ عاد مرة أخرى إلى مدخل القصر حين سمع صوت خطوات مصدرها السلم الرخامي، خطوات هادئة رتيبة تصعد الدرج. تقدم موجهًا المصباح بحذر فلم يجد أحدًا، شعر أنس في داخله بالخوف، وقرر أنه سوف ينهي هذه الرحلة الغريبة. توجه إلى باب القصر، حاول أن يفتحه ولكنه أبى أن يستجيب لأمره. شعر أنس بأنفاس ساخنة تأتي من خلفه، أغمض عينه للحظة لا يعلم خوفًا أم استعدادًا لما سيراه. صوت دقات عالية اقتحم الهدوء فجأة، شعر بإنارة حمراء خفيفة، وهنا قرر أنه سوف يدير وجهه وليكن ما يكون. حين أدار وجهه كان ما رآه أقل ما يصفه به أنه «شيء غريب ومرعب».

مجموعة من الأشخاص متشحين بالسواد، يقفون بشكل دائري حول ما يشبه المدفأة، وتحوي نارًا شديدة الحمرة تتطاير شظاياها من شدة حرارتها، يتمتمون بكلمات حاول أن يفسر منها ما يستطيع:

- احضروني طائعين.. أقسمت عليكم بحق الكلمات السبع.. وبقسم أهل البئر أن تحضروا إلى طائعين..

تكررت الكلمات أكثر من مرة حتى ازدادت النار اشتعالًا وازداد معها خفقان قلبه، عاد إلى الوراء ملتصقًا بالحائط رعبًا، يحاول أن يفتح الباب ولكن دون جدوى. فجأة، خمدت النار ثم اشتعلت مرة أخرى، ورأى خيالات سوداء وكأنها تسبح في أرجاء الغرفة حتى تشكلت في هيئة ثلاث كيانات سوداء مُشعرة، اتسعت حدقتا عينه مشدوهًا وشعر أن الدم قد تجمد في عروقه حين تحدث أحد الثلاثة قائلًا بصوت أجش:

- هل جئتم بما أمرت؟

تقدم أحد الرجال ليكسر الشكل الدائري قائلًا:

- الأطفال على أهبه الاستعداد.

- فلتأتوا بهم إلى البئر اليوم عند اكتمال القمر.

هنا تقدم جسدٌ محني، متكئ على عكاز، ثم أبعد غطاء رأسه لتظهر سيدة عجوز أقل ما يقال في وصفها أنها قبيحة الشكل، فدنا منها المتحدث من الكيانات قائلًا:

- أهلًا بكِ يا خادمتنا المخلصة.

- لن تخالفوا عهدنا الآن.

- لن نخالف ما دمتم طائعين.

- الطاعة واجبة من كلا الجانبين يا حُباب.

- سوف يكون أخي الأصغر من ساكني الأرض، أما بقيتنا فقابعين

في بئرنا حتى يحين الوقت.

انحنى الجمع ليعلنوا استجابتهم الكاملة لأوامر حباب، ثم اختفى كل شيء من أمام عينيه. هنا تذكر أنس الباب الذي أتى منه إلى داخل القصر، فهرول مسرعًا إليه ولكنه تعثر في الظلام ليرتطم بجسدٍ أمامه. ساعده الجسد على النهوض ليجد رجلًا يرتدي جلبابًا صعيديًا ويحمل أسفل أنفه شاربًا كثًّا، شعر أنس بالخوف فابتسم له الرجل مطمئنًا ثم تحدث بصوت هادئ:

- لو عايز تعرف انت مين وبتعمل إيه هنا تعالى ورايا..

رأى أنس الرجل يصعد الدرج، فتبعه في خوف ملحوظ حتى توجه الرجل إلى أحد الغرف التي كانت فارغة تمامًا إلا من كرسيين. جلس الرجل على أحدهما وجلس أنس على الآخر بشكل تلقائي ثم تحدث أنس قائلًا:

- أنا مش هسرق تاني.. بس سيبوني أمشي.

ابتسم الرجل قائلًا:

- انت مش عارف انت مين؟

- أنا مش فاهم أي حاجة، ومش عارف اللي بشوفه دا من ساعة ما دخلت القصر.. بس أكيد أنا عارف أنا مين!

- ما افتكرش..

- طب انت مين؟

تساءل أنس فجاءه الرد سريعًا:

- أنا أبقى أبوك.. صابر نوار.

انعقد حاجبا أنس قائلًا:

- أنا ماليش أب.. أنا مولود في الشارع.

- ده اللي هما خلوك تعرفه، بس آن الأوان إنك تفتكر كل حاجة.

- أفتكر إيه؟

- افتكر يوم ما نزلت البير.

- بير إيه؟

- بير براهم!

***

تعالت ضحكات حسين بعد انتهاء سميح من سرد قصه الغولة مما أثار دهشة منة وعلي، وغضب سميح، أما عن داسم فكان يقف مبتسمًا دون أن يظهر أي ردة فعل. فتحدث حسين بعد أن انتهت نوبة الضحك قائلًا:

- يعني انت بقيت صاحب كرامات وكمان وارثها من عمي جعفر!

- ما تستهونش بالموضوع يا حسين انت ما تعرفش أنا عملت إيه ودفعت التمن إيه عشان أوصل للكرامات دي.

- انت مجنون يا ابن عمي؟

وقعت الكلمة وقوع الصاعقة على الحاضرين حتى تداخلت منة قائلة:

- إيه اللي بتقوله دا يا حسين؟!

- يلا يا منة.. الباشا بيخرف عايز يبقى مشهور بالكدب والسحر حتى وهو بيموت وداسم مين دا كمان اللي خلاك تكلم أبوك الميت مافيش ميت بيتكلم يا داسم، وإذا كان على التحقيق الصحفي مش عايزينه.

هنا خرج داسم عن صمته قائلًا:

- يعنى انت مش مصدق.

- ولا عمري هصدق التخاريف دي. فيه لعبة قذرة انتوا الاتنين بتلعبوها علينا بهدف إيه؟ دا اللي أنا لازم أعرفه.

- اهدى بس يا حسين واقعد.

- أنا مش هقعد يا علي.. انت عايز تقعد عشان الورث والأملاك، اقعد إنما أنا هرجع البلد تاني.

- أنهي بلد يا حسين!

قالها سميح وهمَّ ناهضًا من مجلسه:

- البلد اللي لعنتنا وبتكره عيلة علام كلها، البلد اللي جابتلك المرض؟ ولا عايز ترجع تعيش مع براهم تاني؟ ولا ما كفكش موت حامد أخوك؟

همَّ حسين ينقض على سميح لينهال عليه ضربًا، ولكن توقفت يده قبل أن تلمس وجه سميح حين نظر لها داسم وقد احتل السواد عينه، ولكن لم يلحظ ذلك أحد سوى حسين.

تشنج جسده ثم هوى أرضًا، علمت حينها منة أن نوبة الصرع قد عادت له من جديد، توقف الزمن من حول حسين في تلك اللحظة، اختفى كل شيء من حوله من أناس وأثاث ولم يظهر أمامه سوى طفل صغير مجوف العينين والدماء تسيل من أنفه، يقترب من حسين فتزداد التشنجات، تحاول منة أن تسعفه هي وعلي، الطفل يقترب من حسين يصرخ في وجهه ثم يبكي، وحسين يهمس:

- سامحني يا حامد، ما عرفتش أخرجك معايا.

مع بكاء حسين وتشنجاته نظر الطفل إلى مكان وقوف داسم الذي أشار له، أن يبتعد، فلبَّى الطفل النداء وانتهت نوبة الصرع وساعد علي حسين على النهوض. حاول حسين أن يتكلم بصعوبة شديدة موجهًا كلماته إلى داسم:

- انت مشعوذ.. مسخ.. انت علمت فيه إيه؟

ابتسم داسم قائلًا:

- الموضوع كله عرض وطلب، هو طلب مساعدتي وأنا ساعدته، وانت كمان كل اللي عليك إنك تطلب وأنا هنهي كل مخاوفك في لحظة.

- إحنا لازم نمشي من هنا!

- مش قبل ما أكملك الحكاية يا حسين..

- هو لسه فيه حكايات تاني؟!

- آخر حكاية.. لازم تعرف اللي حصل لما رجعت لبئر براهم، وهناك فهمت كل حاجة.

الفصل السادس

الحكاية الثالثة ـ بئر براهم

أخرج الغريب سيفًا ذا نصل لامع وأعطاه إليه، فالتقطته الأخير وتفحصه جيدًا ثم قال الغريب:

- هما كائنات زينا ليهم جسد، بس جلدهم سميك ملعون، فيه أسلحة كتيرة ممكن نحاربهم بيها ومن ضمنها الخنجر دا. السيف أو الخنجر دا مصنوع جوا البير بإيديهم هما وبنفس سلاحهم هنقتلهم.

***

انتصفت الشمس في كبد السماء وتعامدت أشعتها على البيوت في القرية، أما أنا فقد كنت أسير بين الأرض الزراعية أسترجع بعض ذكرياتي، هنا أماكن لعبي حين كنت طفلًا وأماكن لهوي حين كنت شابًا، أول فتاة نبض قلبي لها قابلتها عند تلك الشجرة. كان جميع مَن يراني في القرية يبتعد عني، لا يريدون أن يلقوا التحية، الجميع يهربون بعيونهم قبل أرجلهم، لم أكن أفهم سبب تلك النظرات الحانقة ونظرات أخرى توحي بالشفقة.

توقفت حين شعرت بألم في صدري، كانت سخونة حارقة، أزلتُ قميصي لأرى مصدر الألم، هي تلك النجمة التي طُبعت على صدري، أشعر أنها تزداد سوادًا كل يوم.

توجهت إلى منزلنا القديم وكأنني تركته البارحة، السور الجداري الذي يحيط به ينتصفه بوابة حديدية وعلى جانبها وضعت لافتة

كتب عليها «منزل عائلة علام». دفعت الباب الحديدي وبمجرد أن وطئت قدمي داخل الحديقة الصغيرة ازدادت سرعة الرياح وتحدث صوتٌ من خلفي قائلًا:

- نورت بلدك يا سميح.

كان صوتًا غليظًا بالنسبة لسيدة عجوز تتشح بعباءة سوداء ولديها عين مفقوءة والأسنان قد ضنكت من اصطفافها جنبًا إلى جنب، فقررت أنها لن تعيش معها مرة أخرى. كانت تلك المرة الأولى التي أراها بها، ولا أخاف، بل انتابني شعور بالطمأنينة، فتحدثت مرة أخرى قائلة مع ابتسامة زادت من قبحها:

- مستنياك..

فبادلتها نفس الابتسامة وجاءها ردي سريعًا:

- هجيلك.

- عايز مين يا أستاذ؟

- انتِ مين؟

يقع منزل براهم أمام منزلنا الكبير، تنظر إليه فتجده صغيرًا متهالكًا، خشبه متآكل، والبوابة قد أصابها الصدأ، الظلام يحيط به من كل جانب. نظرت إليه ثم دلفت إلى حديقة منزل علام، أشجار التوت ما زالت تقبع في مكانها والورود البنفسجية. توجهت إلى دار الضيافة باحثًا عن أي شخص هنا ولكنني وجدتها مغلقة، وهذا ليس من عادة منزلنا المتواضع، فهذا المكان المغلق قد استقبل مظالم وشكاوي أهل

القرية، وكان يأتيهم الحل سريعًا مرضيًا لكل الأطراف.

تنفست الصعداء وتوجهت إلى سلم رخامي من درجات معدودة ثم قرعت الباب، فتحت الباب فتاة عشرينيه بيضاء قصيرة القامة، احمرار وجنتيها يزيد من جمالها جمالًا وكأن القمر قد هبط من السماء ليقف أمامي اليوم. أخذت تتفحص بعينيها البنيتين الواسعتين الرجل الماثل أمامها وأنا لا أتحدث، وكأنه قد أصابني سهم من البلاهة ومحيت من عقلي كل الكلمات، وكأني عدت طفلًا يحبو ولا أعي كيفية التحدث. شعرت أنها تتفحص عضلات جسدي المنتفخة فزدت قليلًا من انتفاخها، ثم تحدثت بعفويتها الريفية قائلة:

- حضرتك اللي جاي تخبط على بابنا وبتسأل أنا اللي مين؟

ابتسمت قائلًا:

- عندك حق.. أنا سميح علام.

اتسعت حدقتا عينيها وقد اعتلت ملامحها علامات خجل بسيطة وقالت:

- انت إزاي هنا؟

- يعنى إيه؟

- وسابوك تخش البلد كدا عادي!

- أنا مش فاهم حاجة، ممكن لو سمحتِ تدخليني دا بيتي!

- مابقاش بيتك يا ابن جعفر خلاص.

جاءني الرد من خلفي، عدلت من وضع جسدي ناظرًا لأجد سيدة في الأربعينيات ترتدي جلبابًا أسود، ملامحها غليظة، عيونها يحيط بها كحل أسود فحمي، فيعطي وجهها رهبةً وهيبة تشبه هيبة الرجال مع ملامحها الجامدة. دققت النظر جيدًا ثم ابتسمت قائلًا:

- عمتي عديلة! إزيك؟

- كويسة يا ابن أخويا.

- هي ليه مش عايزة تدخلني؟

- إحنا اتبرينا منكم ومن نسل جعفر ليوم الدين.

- إيه بس اللي حصل؟ أنا مش فاهم حاجة!

أخرجت سبحة كبيرة من جيبها الصغير وتنفست الصعداء وتساءلت:

- انت جاي ليه يا سميح؟

- جاي عشان أفهم إيه اللي حصل لأبويا زمان وإحنا صغار، وفين ولاد عمي؟

- ولاد عمك كل واحد شق طريقه، ونزل علي مصر يشتغل، وحسين بيدرس في الجامعة.

- وحشوني أوي علي وحسين.

أمسكت بيدي وهي تتحدث ضاغطة:

- ابعد عنهم يا سميح ومالكش دعوة بيهم.

شعرت بغضب بدأ يتملكني، فلم أعِ إلا حين أمسكت يدها بقوة وبادلتها نفس نظرة الغضب قائلًا:

- أنا جاي عشان أفهم، ومش همشي غير لما تحكي لي كل حاجة.

أمسكت يدها متألمة ثم دلفنا إلى المنزل وجلسنا على أريكتنا المعتادة فتحدثت عديلة قائلة:

- اعذرني لو مقابلتي كانت وحشة بس اللي حصلنا بسببكم مش شوية.

- حصل خير يا عمتي، أنا جاي أصلح كل حاجة صدقيني، بس هي مين البنت دي؟

- دي مهرة بنت عمتك.. إيه نسيتها؟

- لا ما نستهاش بس شكلها اتغير عن زمان أوي، أنا كنت بشيلها وكنتوا بتقولوا لي مهرة لسميح وسميح لمهرة!

- منها لله اللي فقرتكم، براهم خادمة الشيطان هي اللي أقنعت أبوك يشتغل معاها.

- وهي براهم دي جت بلدنا إزاي وإيه حكايتها؟

- دي حكاية طويلة أوي، عندك استعداد تسمع؟

- عندي..

- الحكاية بدأت من سنين بعيدة، كنت أنا صغيرة جدايلي كانت تطول الأرض، جدك علام كان حافظ كتاب الله ماكانش يسيب فرض، وربنا وهبه بصيرة وهِبة مش لحد، كان بيشفي مع إنه مش دكتور، ولا عمره اتعلم. لحد ما في يوم سمع عن واحدة مبروكة جاية البلد اسمها براهم، الناس قالت إنها بتجلب الرزق وبتجلب الخلفة للي ما بيخلفش وبتشفي من الأمراض...

قطع حديثنا عندما دلفت مهرة إلى الغرفة الجالسين فيها وهي تحمل صينية دائرية وُضع عليها كوبان صغيران من الشاي، تقدمت إليَّ وهي مبتسمة، فبادلتها أنا الآخر نفس الابتسامة، فتناولتُ كوب الشاي وتجرعت منه رشفة واحدة ثم تحدثت قائلًا:

- والله كان واحشني الشاي الصعيدي.. تسلم إيدك يا مهرة.

- تسلم من كل شر يا ابن خالي.

- الشر اتمكن من العيلة خلاص.

قالتها عديلة، ثم أمرت مهرة أن تخرج، وجهت حديثها إليَّ قائلة:

- كنت وقتها عيلة بجدايل وبحكم إني كنت بعد مع جدك وكان بيحفظني القرآن، اتعلقت بيه وبحكاوية، ووصل الموضوع إني كنت بحضر معاهد جلساته اللي بيعالج فيها الناس، وأما سمع عن براهم قرر إنه يروح يشوف بتعمل إيه، وأنا طبعًا شبط إني أروح معاه.

- وأخدك معاه وانتِ في السن دا؟

- ماكانش يحب يزعلني، جدك علام كان قلبه حنين. وروحنا عند

بيت براهم.

- وشوفتِ إيه هناك؟

- جمع كبير من كل الناس، أطفال وكبار وشيوخ، رجالة وستات، كل دول جايين فاكرين إنها بتشفي، لكن الشافي هو الله.

أمسكت بصدري مكان العلامة المطبوعة حين شعرت بألم وحرقة شديدين، ولكن حاولت ألا أُبيِّن ألمي وعدتُ أسمع ما تقصه عمتي عديلة.

- أنا وجدك كنا واقفين ورا الناس دي كلها، وأنا ماكنتش شايفة، فبقيت أزق الناس وأدخل يمين وشمال لحد ما لقيت نفسي واقفة قدام براهم، كانت أيامها بنت صغار وحلوة بس وشها كان باين عليه سواد، مع إنها كانت بيضا وحواليها يجي عشرين قفص مليانين غربان. وقفت على حاجة زي كرسي عالي وبدأت تتكلم.

- قالت إيه؟

تساءل سميح في عجالة.

- كانت عملة جلسة علاج جماعية، فضلت تبرطم بكلام ماحدش كان فاهمه، بس الجمل دي كان فيها آيات قرآنية أنا متأكدة بحكم إني كنت حافظة القرآن. وفجأة سمعت صوت الناس بتصرخ واللي بيضرب نفسه وهي تعلي صوتها أكتر بالكلام الغريب، لحد ما كل الناس وقعت في الأرض. قلبي ساعتها اترعب، كنت خايفة على أبويا بس اطمنت لما بصيت لقيته هو الوحيد اللي واقف وما وقعش، بص

لي وابتسم وبعدين بص لبراهم، وهي كمان كانت بتبص عليه. عدى من الوقت حوالي خمس دقايق وبعدين الناس فاقت وكل واحد راح لحال سبيله، بس براهم ما سابتش جدك في حالة.

- يعنى هي عملت إيه في الناس؟

- جدك فهمني وقالي إن هي سحرت الناس في البلد، واللي إيمانه قوى بس هو اللي ما صابهوش مس الملعونة دي.

- وده معقول؟!

- اليوم دا خلص والجرايم انتشرت في البلد، حاجات حصلت ماكانتش موجودة ولا عمرها بتحصل، سرقة وقتل وهتك عرض، الناس بقت مغيبه واتجننوا..

- طب وجدي عمل إيه؟

- جدك كانت صدمة عمره لما لقى أبوك جعفر داخل عليه بيها.

- وهو جابها هنا ليه؟

- جعفر علام اتجوز براهم.

اتسعت حدقتا عيني ووقفتْ مشدوهًا وقد هربت الكلمات مني، وشعرت بدوار خفيف. شعرت عديلة هي الأخرى أن الخبر وقع عليَّ كالصاعقة القادمة من السماء، وهدفها الوحيد هو تدميري أنا دون باقي البشر. ساعدتني على الجلوس مرة أخرى وربتت على كتفي قائلة:

- ما كانش نفسي تكون ابن الشيطانة دي.

- أنا أمي ماتت وهي بتودلني، أنا مش ابن براهم!

- للأسف يا سميح انت ابن براهم.

- وازاى جدي الشيخ علام يوافق بدا؟

- جدك ما وافقش، بس براهم كانت عايزة تكسره، كان واقفلها في شغلانتها كل لما تمس حد بشيطانها أبويا يروح وينجده، فقررت إن هي تدخل البيت دا وتبقى واحدة منه، قررت تهده من جوا لبرَّا.

- طب لو أنا ابنها ليه ما أخدتنيش معاها وربتني؟

- براهم ما بتحبش غير نفسها، وجدك رفض إنها تقعد هنا، فأبوك جابلها البيت اللي قدامنا واللي فيه البير الملعون، وأما خلفتك سابت البيت ومشيت وسابتك مع البيت، وأبوك ما عرفناش عنه حاجة من ساعتها.

- يعنى أنا كمان أبويا مش ميت

- ماحدش عارف يا ابني إذا كان مات ولا هرب مع الملعونة دي، بس أنا أخدتك وربيتك مع ولاد عمك علي وحسين ودا كان بأمر جدك علام.

نهضت من مكاني وأنا أحاول ألا أصدق تلك الحكاية الغريبة، شعرت لوهلة أننا في خضم روايات من روايات ألف ليلة وليلة، شيء لا يصدَّق، المرأة التي كنت أهابها طوال عمري أعود لأجدها أمي.

خرجت من منزل جدي علام ونظرت تجاه منزل براهم لأرى غربانًا كثيرة تطير من حوله، استجمعت ما تبقى من قواي النفسية وتوجهت إلى بوابة المنزل الحديدية، دفعتها بيدي ثم توجهت إلى الباحة الخلفية لأجده قابعًا مكانه منذ سنين، أحجاره مرصوصة بشكل هندسي تنبعث منه نفس الرائحة الكريهة، في تلك المرة لم أشعر بالخوف حين رأيت ذلك الطفل الصغير مجوف العنين والدماء تسيل من وجهه وهو يجلس على طرف البئر ويشير إليَّ أن آتي، لم أشعر بشيء سوى أني أخلع قميصي ويصبح جذعي عاريًا لتظهر النجمة الموشوم بها وكأنها تحترق، لم أشعر بالألم، بل شعرت بأيادٍ ناعمه تحملني وتلقي بي داخل البئر، وقبل أن أسقط وجدت براهم تقف تبتسم بوجهها العابس القبيح.

بعد فترة وجيزة من الزمن، وجدت نفسي قد استعدت وعيي وأنا أقف في مكان مظلم ذي رائحة كريهة، اشتعلت مصابيح نارية لا أعلم من أين أتت لأجدها تقف أمامي بوجهها القبيح فتحدثت قائلة:

- كان نفسي أقولك إنك وحشتني وآخدك في حضني زي أي أم، لكن مفيش أي مشاعر ليك جوايا.

- ليه عملتِ كدا؟ ليه سيبتيني؟

- عشان هما اللي طلبوا كدا، أنت مميز يا سميح ولازم تفهم دا، وافهم إني كنت شايفاك على طول وكنت معاك طول الوقت.

- إزاي؟

- أي غلطة كنت بتعملها أي حد كنت بتؤذيه كنت ببقى شايفاك،

وعرفت ساعتها إنك ما ورثتش حاجة من علام وإنك ورثت براهم، إحنا خدام لكيان عظيم، كيان هيمنحنا القوة والحياة الأبدية.

- تعالى ننسى كل حاجة ونبدأ من جديد.

تعالت ضحكاتها حين سمعت كلماتي الأخيرة، ثم دنت مني لتزداد رائحة المكان قبحًا وقالت:

- مافيش شيطان هيخش الجنة بعد ما اطرد منها، اللي أنا عملته معاهم يخليني ما اعرفش أرجع أبدًا، وخليك دايمًا فاكر، البداية كانت من عندي والنهاية هتكون عندك أنت.

أنهت كلماتها لتختفي هي وتظهر خيالات سوداء، تقدمت تجاهي لتحملني وتجوب بي داخل البئر، وكأنهم يحتفلون بعودتي، لم أشعر بشيء سوى بأيديهم المشعرة ولا أتذكر حتى كيف خرجت من بئر براهم.

الفصل السابع
النواريون

الخدعة هي لعبة سخيفة يتمكن بها المخادع من إقناع المخدوع بأفكاره التي يريدها أن تُزرع بداخل عقله بهدف الاستيلاء على شيء ثمين يملكه، وخداع البشر أصبح سهلًا لقلة الإيمان وسواد القلب. الشيطان لا يريد مِنا سوى روحنا الطاهرة ليدنسها بالعاقبة، وخدعته يزين لنا الشهوات ويجعلنا نعتقد أن راحتنا في تلك الأمور فقط، لقد ولّى زمن الخوف منه وانتهت ألاعيبه القديمة، فإن لعبته اليوم هو التخفي وسط بني البشر، ينخرط معهم يتحدث مثلهم يواكب عصرهم ليضبح خداعنا أمرًا سهلًا. تلك كانت الخديعة التي وقعت بها براهم وأوقعت بها عائلة كاملة من بعدها، وما زال العد يتزايد، لذلك وجدنا التواريين.

النواريون هم من يتصدون لسحر داسم وبراهم وأمثالهم من شياطين الإنس والجن، نسلنا مبارك وأرواحنا طاهرة، جميعنا قد دلفنا إلى تلك البئر الملعونة وجميعنا خرجنا منها بتغيرات كثيرة وهبات عظيمة، ولكلٍ منا عقله ليرشده في أي جهة يستغل تلك الهبات.

يجلس أنس مستمعًا إلى كلمات ذلك الرجل الذي يطلق على نفسه والده، أنهى الرجل حديثه وكلماته غير المفهومة تلك، ثم عقب أنس:

- أنا مين؟ وليه بيحصل كدا؟

- انت من النواريين..

- يعني إيه؟

- إحنا حماة أسرار البئر.

- أنا مش عارف بئر إيه اللي بتتكلم عليه، والقصر دا إزاي بقى مهجور كدا! أنا كنت شايف ناس بتدخله قبلي!

- إحنا عينينا بتشوف الحقيقة.. الحقيقة وبس يا أنس. المكان دا ملعون مش زي ما انت فاكر.

- أنا مابقتش فاهم حاجة خالص!

- لو عايز تفهم يبقى تساعدني إني أفكرك.

- إزاي؟

- زمان وانت صغير أنا كنت عايش مع قرايبي في البلد، وكنا ساكنين في بيت كبير اسمه بيت علام. الدنيا دي يا أنس فيها سادة وفيها خدام، أنا يا ابني كنت شغال غفير عندهم وانت كنت صغير وكنت متصاحب على ولاد علام.

شعر أنس بدوار خفيف يجتاح رأسه وألم شديد وذكريات تتخبط بداخله حتى قال:

- حامد.. حامد علام.

- حامد وعلي وحسين، وسميح كان أكبرهم، كنتم بتلعبوا في يوم في الأرض اللي أنا كنت بحرسها لحد ما وقع المحظور ووقعتوا في البئر الملعونة.

- أنا حقيقي مش قادر أفتكر حاجة، أنا عايز أمشي من هنا.

نهض أنس مسرعًا محاولًا الهروب من ذلك القصر الملعون، ولكنه شعر بدوار شديد وسقط أرضًا. اقترب منه والده ووضع يده اليمنى على رأسه قائلًا:

- بِسم الله الذي لا يَضرُّ مع اسمِه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء.

شعر أنس أن العالم يدور من حوله، وصورٌ كثيرة تتدفق إلى داخل رأسه وبدأ في الصراخ متألمًا حتى أغشي عليه.

***

أنهى سميح حديثه وعم الصمت المكان، أشعل علي لفافة من التبغ، بينما حسين كان عقله يحاول استيعاب ما وقع على مسمعه، نهض سميح من مجلسه وتقدم إلى النافذة المطلة على الحديقة التي يتوسطها البئر، ثم تحدث إلى داسم قائلًا:

- ودلوقتي يا داسم لازم نسيبهم يمشوا.

- لسه الحكاية ماخلصتش يا سميح..

نهض حسين من مجلسه قائلًا:

- أنا مش قادر أستوعب! يعني براهم تبقى مرات عمي، وانت ابن براهم.. انت مصدق يا علي؟

- أنا اصدق أي حاجة بعد اللي شوفته هنا.

فتحدثت منة قائلة:

- انتوا لازم تحكوا لي إيه اللي حصلكم في البئر!

- مافيش غير سميح هو اللي ممكن يحكي لك.

قالها حسين ثم استوقفه علي قائلًا:

- لا.. المرة دي أنا اللي هحكي.

شعر سميح وحسين أن هناك تغيرًا في نبرة علي الذي توجه إلى الكرسي حيث كان يجلس سميح، وجلس، وأشار لسميح أن يجلس مكانه بجوار حسين. عقد حسين حاجبيه ثم قال:

- علي، انت كويس؟

- صدقني، النهاردا أكتر يوم أنا كويس فيه. الحكاية بدأت يا منة برهان، «مين فينا يقدر يلعب عند بيت براهم؟»، وكلنا روحنا ولعبنا ووقعنا في البير، بس أنا ما طلعتش لوحدي.

السقوط الأول

أشرقت شمس يوم السقوط في البئر، كان هذا اليوم هو يوم تجمع عائلة علام، يلتف الجميع حول مائدة كبيرة من الطعام أُعدت مسبقًا من نساء البيت، تشرف عليهم الابنة الكبرى عديلة. الأطفال الصغار اعتادوا أن يلهوا في حديقة المنزل أمام أعين آبائهم وهم يتناولون الشاي. أما داخل المنزل فوقفت النساء يعدن لهم أكواب الشاي، تستند عديلة إلى أحد الحوائط وهي تنظر إلى باقي أقرانها، نهرتها نفسية زوجة جابر مازحة:

- أنا مش عارفة ساعة عشان كوبايتين شاي!

- معلش يا عديلة ياختي، أصلها بنت العمدة وآخده على العز والخدم.

كانت هذه الكلمات قادمة من سنية زوجة جعفر، ولكنها لم تكن تمزح، فلم تستطع نفيسة أن تخفي غضبها، وسرعان ما تغيرت ملامحها وأخرجت زفيرًا حانقًا وكادت تتكلم، ولكن نظرات عديلة كانت كافية لتجعلها تصمت، ولكنها تابعت قائلة:

- راح جابلنا قال إيه بنت العمدة وساب أختي اللي ماتتعايبش.. هقول عليك إيه يا جابر طول عمرك مابتعرفش تختار.

لم تستطع نفسية أن تتمالك نفسها أكثر، فاعتدلت تجاهها ثم خرجت الكلمات منها كشرار متطاير من لهيب في أوج اشتعاله، فقالت:

- على الأقل بطني بتشيل، مش أرض بور وضحكوا عليا وجوزوني جعفر المجذوب عشيق الشيطانة!

تستشاط وجهها غضبًا وقالت عديلة غاضبة هي الأخرى:

- ماينفعش الكلام دا يا نفسية.. وانتِ يا سنية.. انتم لحد امتى هتفضلوا كدا ناقر ونقير؟ هاتي الشاي دا أما أخرجه برا..

- استني خديني معاكِ.. مش حابة أكون هنا.

كانت تلك الكلمات مصدرها نفسية، قالتها وهي تنظر مبتسمة إلى سنية التي تبعتها وهي تخرج بنظرات حانقة.

يجلس علام الجد الأكبر في حديقة المنزل متربعًا على أريكة خشبية متوسطة الحجم، يمسك سبحته الكبيرة ناظرًا إلى السماء ويذكر الله داعيًا أن يتم عليه نعمة الصحة، ويدوم لم شمل عائلة علام إلى آخر الزمان. يجلس من حوله أولاده جعفر وجابر، كان جابر علام قوي البنيان، ذا ملامح غليظة وشارب كث فحيم، أما جعفر فكان جسده هزيلًا، هالات سوداء تحيط بعينيه ولحيته غير مكتملة، دائمًا ما كان يجلس شريدًا لا يتحدث كثيرًا. اعتدل علام في جلسته وقد تناول كوبًا صغيرًا من الشاي، وُضع مسبقًا على المنضدة الخشبية الصغيرة. ارتشف منه رشفة كبيرة، ثم حمد الله وتحدث إلى جابر قائلًا:

- أخبار علي إيه يا جابر؟

- بخير الحمد لله يابا.

- كشفتوا عند الدكتور المصراوي؟

- آه وقالي إن هو ما عندهوش حاجة، وإنه مع الوقت هيتكلم زي بقية العيال في سنه. ما ترقيه يا حاج! يمكن الشفا يبقى على إيدك!

- الشافي هو الله يا ابني، ومع ذلك هرقيهولك.

- ما توديه لبراهم!

قالها جعفر وهو ينظر إلى والده فأجابه جابر:

- وهي فين براهم دلوقتي؟ ما هي طفشت من البلد..

- ومين قالك؟ أنا بشوفها كل يوم..

عقد علام حاجبيه وحاول أن يكظم غيظه قائلًا:

- وبتشوفها فين بقى يا خيبتي في الدنيا؟

- في المنام يابا بتجيلي كل يوم.

- أنا شايف إنك تقوم ترتاح شوية.

- أنا مش تعبان يابا وهاييجي يوم وهتصدقوا إن الست دي مبروكة وإني ما غلطتش لما اتجوزتها.

- قفَّل على السيرة دي يا جعفر وخلي اليوم يعدي على خير.

قالها جابر ثم نهض مبتسمًا حين وجد علي قادمًا تجاهه ويتبعه كلٌ من حسين وسميح. سميح كان أكبرهم، طفل يبلغ اثنا عشر عامًا، أما حسين وعلي فكا، سنهما متقاربًا، أصحاب الأعوام العشر. كان

الثلاثة في طول واحد، قصار القامة، غالبًا ما كانوا يرتدون نفس الزي من الجلباب الصغير وطاقية بيج اللون دائرية توضع على رأسهم الصغير.

اقترب علي ليستقر في حِضن أبيه، أما حسين فقد كان قادمًا ممسكًا بيد عمته عديلة، وقف سميح أمام والده أراد أن يرتمي في أحضانه كما فعل ابن عمومته، ولكن جعفر أبعده بيده، فكاد الطفل يبكي، ولكن سرعان ما جذبه علام ليستقر في حِضنه مداعبًا إياه حتى انفرجت أسارير الطفل قليلًا. وقف سميح أمام جده علام وأمسك بيده وطبع قبلةً عليها، ثم قال مستأذنًا:

- لو سمحت يا جدي هنروح نلعب في الأرض الواسعة اللي قدام البيت.

- طب ما تلعبوا هنا! يعني تسيب الزرع الجميل دا وتروح للأرض الفاضية دي!

- معلش يا جدي مش بنعرف هنا نلعب براحتنا.

- ماشي يا سميح، بس أنت الكبير خلي بالك عليهم!

تقدم إليهم رجل أربعيني ذو لحية طويلة مهذبة يمسك بيده طفل صغير في عامه السابع، فرحب به جابر قائلًا:

- حمد الله على السلامة يا جمال.. إيه اللي أخرك كدا؟

- كان عندي شوية شغل في الأرض، والواد حامد شبط فيا فأخدته معايا، خلصنا الشغل وجينا على طول.. صح يا حامد؟

ابتسم حامد صاحب الوجه الملائكي ونظر إلى أخيه حسين، ثم همس له في أذنه فقال حسين لوالده:

- خلي حامد يجي يلعب معانا يابا في الأرض الواسعة.

- ماشي.. بس تخلي بالك من أخوك يا حسين!

تقدم سميح ليقطع الحديث قائلًا:

- ما تقلقش يا عمي، أنا الكبير وهخلي بالي منهم كلهم.

- وأنا متأكد من دا. يلا بقى بسرعة قبل ما الليل يدخل علينا.

- يعني كنتم رايحين تلعبوا من غيري!!

كان مصدر الصوت لطفل صغير لا يتعدى عمره الخمس سنوات، كان هذا أنس ابن سالم كبير غفر أراضي علام، فأجابه علام قائلًا:

- وهما يقدروا برضو يا أنس! يلا يا سميح خد أخوك معاك.

أمسك الخمسة بأيدي بعضهم البعض، ثم توجهوا إلى الأرض. كانت أرض مقفرة وكأنها احترقت من قبل. أخذوا يبحثون عن بقعة خالية من أوراق الشجر تصلح للعب، حتى وجدوها، قرروا أنهم سيلعبون الغميضة. وقف حسين موليًا لهم ظهره، وبدأ في العد حتى يتسنى الوقت للأطفال الأربعة أن يختبئوا، بدأ حسين في البحث عنهم ليمسك بأحدهم فيحل محله، ظلوا هكذا حتى مر ما يقرب من الساعة، فتحدث سميح قائلًا:

- أنا زهقت.. ما تيجوا نلعب لعبة تانية!

- هنلعب إيه يعني؟

قالها أنس.

- أنا شايف إن إحنا نروح وكفاية لحد كدا لعب عند بيت براهم.

قالها حسين فعقب سميح:

- الظاهر إنك خايف!

- لا أنا ما بخافش..

- هو إيه اللي هناك دا؟

قالها سميح متعجبًا، فنظر الجميع ليجدوا البئر الحجري أمامهم.

- هو مش دي البير اللي سمعنا جدي بيتكلم عنه؟

قالها حسين وهو ينظر تجاهه، ثم نظر إلى سميح وكأن الفكرة جاءتهم في نفس الوقت، فبادر سميح بالكلام قائلًا:

- تيجوا ننزل البير!

أمسك حامد بيد أخيه حسين خوفًا، أما علي فظل يشير برأسه أي «لا». فحثهم سميح قائلًا:

- بقى معقوله ولاد علام يخافوا! وبعدين دي بير هيكون فيها إيه يعني؟

تقدم الخمسة تجاه البئر ليجدوا حبلًا كبيرًا يتدلى أمامهم، أمسك سميح به ونظر في البئر ليجد الحبل يصل إلى نهايته الظلامية،

وباقي الحبل مثبت في أحد الأشجار، نظر الجميع إلى بعضهم وكأنهم يتخذون القرار بالنزول. تقدمهم سميح يمسك بالحبل، وبدأ في الهبوط تدريجيًا وتبعه الأربعة الآخرون. أصبح الخمسة معلقين على الحبل، وفي آخره كان سميح، وفي أوله كان حسين، أما حامد وعلي وأنس في المنتصف. نظر حسين إلى أعلى ليرى براهم تقف مبتسمة وهي تنظر إليه، كان وجهها قبيحًا، بث الرعب في قلبه، صرخ حسين حين رآها ممسكة بطرف الحبل وقد ألقت به ليسقطوا صارخين في بئر براهم.

صراخ الأطفال كان عاتيًا، يشعرون أنهم ظلوا يسقطون لوقت طويل من الزمن، كان الظلام حالكًا ولكن خيِّل لهم أنهم يرون أناسًا مشوهين معلقين على جوانب البئر، فزاد ذلك من ذعرهم ذعرًا حتى وصلوا إلى القاع. كانت صدمتهم بالأرض خفيفة، لم تكن مؤلمة، وكأن شخصًا ما استقبلهم على راحة يده، ساعد حسين حامد على النهوض وأمسك بيده ليُطمئنه، أما علي فكان ما زال صامتًا ينظر حوله، وسميح كان يتقدمهم وكأنه فارس شجاع.

الإضاءة صفراء، خافتة، نظر الأطفال حولهم ليجدوا أنفسهم يقفون على هياكل عظمية صغيرة، فصرخ حامد حين رأى تلك الجمجمة الصغيرة وكأنها تنظر إليه، قال سميح:

- ما تخافوش.. أكيد فيه مخرج من هنا!

- هو إزاي البير شكلها صغير وتطلع بالعمق دا؟

تساءل حسين.

- أنا خايف أوي يا حسين.. أنا عايز ماما!

- ما تخافش يا حامد.. هخرجك من هنا.

خُيل لعلي أنه رأى شخصًا يتحرك مسرعًا على يمينه، فأشار لهم أن ينظروا، ولكن لم يكن هناك أحد. تكرر الأمر على جهتهم الأخرى ولم يجدوا أحدًا. اقتربوا من بعضهم البعض ليستمدوا ولو قليلًا من الشعور بالأمان حتى سمعوا صوتًا يشبه صوت فحيح الأفعى قادم من أمامهم، ثعبان كبير، لا مجموعة من الثعابين الكبيرة، تتقدم إليهم، شارفت على الوصول لهم، ولكن توقف كل شيء حين ظهرت براهم من العدم في وسط الثعابين. أشارت بيدها لتبتعد الثعابين الكبيرة، ووقفت هي أمامهم متشحة بالسواد، تقدمت إليهم ووقفت أمام سميح قائلة:

- نورتوا البير..

- انتِ مين؟ ممكن تروحينا؟

قالها حامد مستعطفًا إياها:

- انتوا مش هتخرجوا من هنا، فيه حفلة عظيمة في استقبالكم.

قالت جملتها الأخيرة ثم طقطقت بأصابعها لينير المكان وينظر الأطفال حولهم ليجدوا جمعًا من الأشخاص متشحين بالسواد، يلتفون حولهم ومن أمامهم نار مُشتعلة. انكمش الأطفال خوفًا، وأمسكت براهم بحامد وأنس وهما يصرخان ويبكيان، حاول حسين أن يمسك يد أخيه، ولكن فوجئ الجميع بأيادٍ تمسك بهم، تقدمت

بالصغيرين ووقفت أمام النار المشتعلة وتحدثت قائلة:

- اليوم تبدأ الطقوس، يبدأ تقديم القرابين ليرضى عنا الشيطان وأعوانه.

هلَّل الجمع فرحين، رفعت يدها مشيرة لهم أن يهدأوا وتابعت قائلة:

- سوف نقضي على نسل النواريين، لن يقفوا أمامنا بعد اليوم، أنا براهم بنت هارون، أتقدم إليكم اليوم بدم هذا الطفل النوراني لتكشف لي الأسرار وتجعلني أتحكم بالأقدار، وأتحكم بكائنات الليل والنهار.

صدرت صرخات مدوية تأتي من قلب النار، وبدأت تزداد حرارة المكان، ثم انفجرت النار الحمراء وبدأت مئات الخيالات السوداء تخرج منها لتسكن أجساد الحاضرين، ثم نظر علي بجانبه ليجد شيئًا ما يتحرك وعينه تضيء في الظلام، فزاد الرعب على وجهه ثم خيل له أن هذا الكيان يبتسم له وقفز إليه ليستقر داخله. ظهر من النيران ثلاث كيانات ضخمة، تحدث أحدهم قائلًا:

- مرحبًا بأهل البئر!

ركعت براهم قائلة:

- سيدي ومولاي حنان، أتقدم إليك اليوم بدم هذا الطفل النوراني والقرابين الثلاثة من الأطفال جاهزين رهن إشارتك.

كان حامد قد أغشي عليه مسبقًا ووضعته على ما يشبه المذبح،

حاول حسين أن يتحرك ويفلت من اليد القابضة عليه ولكنه فشل مرة أخرى، ولكن سرعان ما حدثت هزة أرضيه كبيرة. ثم ظهر من العدم رجلٌ ملثم يرتدي السواد رافعًا يده في الهواء، ووقف أمام براهم قائلًا:

- كفاياكِ شر يا عبيدة الشيطان!

- انت مين؟

أزال الوشاح عن وجهه ليظهر رجل ذو بشرة بيضاء ولحية مهذبة وقال:

- أنا سالم النوراني، والنهاردا نهايتك يا براهم.

فصرخ أنس قائلًا:

- الحقني يا أبويا!

أغمض عينيه وفتحهما مسرعًا ليشع منه نورٌ أبيض بسيط وقال:

- بسم الله الواحد الأحد القادر الصمد، لا أخشى سواك يا الله، أقسمت عليكم بحق الله الذي لا إله إلا هو أن تعودوا إلى جحيمكم.

اهتزت الأرض مرة أخرى ولكنها أشد قسوة تلك المرة، واختفت الكيانات الثلاثة من أمامه. أما براهم فوقفت أمامه قائلة:

- انت فاكر إن انت كدا هزمت أهل البئر؟

- دي معركة وعمرها ما هتخلص يا براهم.

- إحنا اللي كسبانين.

- انتم مجرد جنود لملك كذاب مافيش في إيده حاجة، بيوعدكم بالجنة الكدابة.

- وانت بتعمل دا كله ليه؟

- عشان أنا مع مالك الملك صاحب جنة الخلد.

- شعارات.. شعارات.. كفاية شعارات!

- سيبي الأطفال دول في حالهم كفاياكم لحد كدا..

- هنتقابل تاني يا سالم.

- ولو مش أنا فيه ألف واحد من نسلي هيقف قدامكم.

اختفت براهم من أمام سالم فجرى مسرعا تجاه حامد، حمله وتوجه إلى مكان باقي الأطفال ليطمئن عليهم، فسأل سميح:

- عم سالم انت إزاي هنا؟

- مش وقته يا سميح لازم نطلع من هنا.

- طب وهنطلع إزاي؟

بحث بيده على الحائط، ثم أمسك بطرف حبل كبير وكأنه كان مزروعًا بداخل الحائط، ثم سحبه ليظهر الحبل، وبدأوا يتسلقون واحدًا تلو الآخر. كان أولهم سميح وآخرهم علي، صعد علي ومن خلفه كان سالم يحمل حامد على كتفه. نظر علي إلى سالم بعد أن تحول لون عينيه إلى السواد وابتسم قائلًا:

- لازم تموت يا سالم..

دفعه بقدمه ليسقط وهو حامل حامد وقد رأى حسين سقوطهما، فصرخ مناديًا باسم أخيه، ولكن دون جدوى، كان يبكي حسين بينما يبتسم علي لقتله أحد النواريين.

لا يعلم الأطفال كم من الوقت استغرقوا ليخرجوا من البئر، ولكن حينما وطئت أقدامهم الأرض هرولوا مسرعين إلى منزل علام، وحين رآهم جابر نهض بسرعة تجاههم، وقام الجد الأكبر متكئًا على عصاته.

في ذلك الوقت، كانت سنية تقف في شرفة المنزل لترى مشهد الأطفال يهرولون إلى الداخل والفزع والرعب يسيطر على وجوههم، فصرخت لتركض كلٌ من عديلة ونفيسة. التف الجميع حول الأطفال وأمسك جابر بعلي محتضنًا إياه، وعديلة ضمت حسين إلى صدرها وبحثت بعينيها عن حامد، ثم تساءل الجد علام:

- إيه اللي حصل؟ كنتوا فين؟

- إحنا نزلنا بئر براهم..

وقعت الكلمات وقع الصاعقة على علام، ولكن كانت الصدمة الكبرى حين نظروا لقائل تلك الكلمات، فقد كان علي.. هنا هلل جابر فرحًا قائلًا:

- الحق يابا.. الواد بقى بيتكلم!

خرج جمال علام عن صمته وسأل حسين:

- فين حامد يا حسين؟!

لم يجد الطفل كلمات تخرج من حلقه، ولكنه اكتفى بأن دفن رأسه في أحضان عديلة ولم يتوقف عن البكاء، وعلا نحيبه. تقدم علام إلى أنس الصغير قائلًا:

- أنا عارف اللي حصل لأبوك، ماتخافش أنا مش هسيبك.

لم يستطع الطفل التوقف عن البكاء، وأبعد يد علام وهرول مسرعًا خارج المنزل، ليرى براهم تقف أمام منزلها، فأمسك بطوب صغير وبدأ يلقيه تجاهها وهي تقف ساكنة لا تتحرك، ظل ينظر لها بنظرات تحدٍ وهي تنظر له مبتسمة، ولم يلحظ شفتاها وهي تتحرك وتتمتم بكلمات غير مفهومة.

أسموديس

نهض أنس بعد أن ساعده والده على النهوض، ثم بدأ يستجمع ذكرياته وهو لا يعلم كيف له أن ينسى ما حدث في تلك البئر وما رآه، ولحظة موت والده سالم. الآن هو يتذكر كل شيء، إنه من النواريين المحاربين ضد طغيان الشيطان وأعوانه كما كان والده، ولكن كان هناك تساؤل واحد: كيف له أن يرى أباه وقد وافته المنية أمام عينه؟

اعتدل في جلسته ثم تحدث إلى سالم قائلًا:

- هو انت لسه عايش؟

- أنا روحي طاهرة، وبأمر الله أنا هنا عشان أساعدك تفتكر وأقولك على السر اللي هيقضي عليهم واللي بيه هتلحق ولاد علام من اللي هما داخلين عليه.

- سر إيه؟

- سر قوة براهم في البئر، لو البئر اتهدت براهم هتبقى ضعيفة وهتقدر تنقذ ولاد علام.

- طب أنا ليه وإزاي نسيت؟!

تساءل أنس في تعجب ملحوظ.

- سِحر براهم ما انتهاش منكم يوم خروجكم من البئر بعزيمة عزمت بيها على نسلي من النواريين إنهم ينسوا كل حاجة لحد ما يجي وقت والبئر تتفتح تاني.

- إزاي؟ مش انت قضيت عليهم؟

- انتم كنتم خمس قرابين هيتقدموا للشيطان، وداسم جمعكم هنا عشان يكمل الطقس بيكم، لازم تقاوم، دوّر جواك على الإيمان، هو اللي هيساعدك.. ودلوقتي أنا لازم أمشي.

- هشوفك تاني؟

- لو لينا نصيب أكيد هنتلاقى.

ظهر شعاع أبيض انبعث من مكانٍ خالٍ في الغرفة ليلتحم مع سالم ويختفي تمامًا. هنا نهض أنس وفتح باب الغرفة ورأى القصر أمامه، وعلى يمينه كان يجتمع داسم بأولاد علام. تنفس الصعداء ثم اتجه إليهم.

***

نهض حسين من مجلسه متجهًا إلى علي يمسك بتلابيبه، ووجه له لكمة قوية، فبادله الآخر بابتسامة ساخرة. حاول سميح أن يخلص علي من يده ونجح بإبعاده، ثم تحدث حسين دامعًا:

- يعني انت اللي قتلت حامد؟ انت عملت كدا ليه؟

- انتوا السبب، هما كانوا أحن عليا منكم، كانوا أحن عليا من أبويا، كلكم كان عندكم كل حاجة، أنا أبويا ماكانش عنده حاجة. سميح باشا كبير العيلة هو وأبوه، وأبوك اللي كان بيراعي الأملاك والفدادين، ماحدش كان بيحبني يا حسين، هما اللي حبوني وفهموني أنا أبقى إيه..

- ويا ترى انت تبقى إيه؟

- أنا المستقبل، أنا معاهم بقيت قوي، هملك كل حاجة، المال والجاه والنفوذ والقوة، لازم كلكم تفهموا إننا أقوى منكم.

- انت شيطان يا علي.. شيطان ولازم تموت!

هنا تحدث داسم بعد صمتٍ دام طويلًا، تقدم ليقف في منتصف الغرفة وهو يزيل بدلته الأنيقة قائلًا:

- الشيطان خدعة، وخدعة عظيمة، كلكم بتخافوا منه، لكن لو حطيتوا إيديكم في إيدي زي ما علي عمل، هنحكم العالم.. سوا هتبقوا أسياد.

- انت لازم تموت يا داسم!

قالها سميح ثم تابع:

- انت اللي عملت فينا كدا من البداية، ماكانش المفروض أسمعلك، وهمتني بكل حاجة، خليتني أفتكر إني صاحب كرامات، وإني قوي، لكن في الحقيقة أنا كان كل يوم ضعفي بيزيد لحد ما وصلت للي أنا فيه دلوقتي.

- ما تندمش.. انت كنت مجرد لعبة عشان أجمع بيها أولاد علام.

- انسى إنك ممكن تعمل اللي في دماغك. يلا يا سميح نمشي من هنا.. يلا يا منة!

قالها حسين فوجد سميح يتبعه، أما منه فكانت تقف تنظر إلى

البئر مولية ظهرها لهم، فنادى عليها حسين مرة أخرى فلم يأتِه رد، فتحدث علي قائلًا:

- أنا نسيت أقولك يا حسين مين اللي طلع معايا من البير..

أشار تجاه منة فاستدارت وصدم حسين حين رأى عينها السوداء وقد تقدمت لتقف بجوار الكرسي الجالس عليه علي، وكان داسم على الجهة الأخرى من الكرسي، فتابع علي قائلًا:

- أقدم لك.. أسموديس.. شيطاني المخلص.

وقف سميح مشدوهًا لا يجد كلمات يفسر بها ما يحدث، ثم وجه حديثه إلى حسين قائلًا:

- لازم نهرب يا حسين قبل ما يقتلونا، دول عايزين يقدمونا قرابيين للشيطان!

ركض الاثنان فارين من وكر الشيطان، ولكن ما لبثوا أن خرجوا من الغرفة حتى سقطوا أرضًا حين اصطدموا بجسد شخص ما، نظر حسين ليجد أنس يقف أمامهما، سرعان ما مد لهم يده يساعدهم على النهوض وركضوا مسرعين ليحتموا أسفل المنضدة الكبيرة، فتحدث سميح قائلًا:

- انت مين؟

- مش وقته الكلام دا. نخرج من هنا وهفهمكم كل حاجة، بس اللي لازم تعرفوه أنا هنا عشان أساعدكم.

على الجانب الآخر، كان أسموديس يتوجه إليهم وهو يسير بخطى

ثابتة، ثم صرخ وهو يرفع المنضدة الكبيرة ويمسك بعنق حسين، نظر حسين إلى عينيه السوداء والنابان اللذان ظهرا مؤخرًا، ثم شعر أسموديس بضربة قوية تأتي على رأسه. نظر خلفه ليجد أنس هو صاحب تلك الضربة، فدفعه بيده ليسقط أرضًا. أما داسم فكان مبتسمًا حين تقدم إلى سميح وأمسك بتلابيبه قائلًا:

- انت مش قد خيانة العهد يا سميح!

- ماكانش لازم أسمع كلامك من الأول.

- انت ملعون زيي بالظبط.. وانت اللي هتفتح البير.

نهض أنس يحاول استعادة قواه، نظر عن يمينه ليجد داسم ممسكًا بسميح، وعلى اليسار كان أسموديس ممسكًا بحسين. قام برفة كفه الأيمن في الهواء ثم صرخ عاليًا:

- بحق من عمد السماوات وبسط الأرض، هب لي القوة أمنع عنا كيد الشيطان.. يا مالك الملك يا باعث النور.. أخرجنا من الظلمات إلى نورك يا الله..

اجتاح القصر هزة أرضية عظيمة، فسقطت ألواح خشبية لتصطدم بالشياطين وتخلص سميح وحسين من أيديهم. ركض الاثنان تجاه الباب ومن خلفهم الثلاثة، فتحا الباب ليخرجا إلى حديقة القصر، وما لبثا أن دلفا إليها حتى غيمت السماء وبدأت الرياح تزداد سرعتها، نظرا إلى مكان البئر القابع في منتصف الحديقة ليجدا شخصًا متشحًا بالسواد يقف أمامه، دقق سميح النظر جيدًا ليجدها براهم بوجهها القبيح وعينيها المفقوءة، حاولا أن يهربا تجاه الباب، ولكن

استوقفهما أسموديس ودفعهما إلى الخلف ليمسك بهما علي وداسم، فتحدثت براهم قائلة:

- أظن جه الوقت يا داسم!

ابتسم داسم وصرخ عاليًا ليستطل بعدها جسده ويظهر جسد مشوه وعين سوداء ويد مشعرة، يشبه قليلًا الذئب في ملامح وجهه، رفع يده عاليًا وهوى بها على سميح لتخرج نافورة من الدماء من وسط صدره ويصرخ متألمًا. سالت الدماء في مجرى متصل بالبئر حتى وصلت إلى قدم براهم التي لطخت يدها ببعض منها، ثم وضعتها على أحد أحجار البئر. هنا ظهر أنس من خلفهم رافعًا يده في إلى السماء قائلًا:

- لعبتك خلصت يا براهم والنهاردا نهايتك انتِ وشياطينك.

تعالت ضحكات براهم ساخرة مما قاله أنس، فتقدمت قليلًا ثم قالت بصوت أجش:

- الأوان فات.. البير خلاص اتفتحت بدم علام.

ركض داسم تجاه أنس وأمسك بعنقه رافعًا إياه في الهواء، ولكن فوجئ داسم بسيفٍ يغرز في جسده، فسقط أرضا وهو يرى أنس مبتسمًا، فقال أنس:

- كنتم عايزين تضحوا بيا أنا ونسل علام عشان أنا من النواريين، بس خلاص لعبتكم اتقلبت ضدكم.

***

أخذ جسد الشيطان داسم يتلوى حتى احترق تمامًا، هنا ركض أنس إلى حسين يساعده على النهوض، فتساءل حسين:

- انت بتساعدنا ليه؟

- أنا أنس ابن سالم.

لم يكن هناك وقت لأسئلة حسين واندهاشه، فركض الاثنان إلى سميح الذي كان يلفظ آخر أنفاسه، فتحدث قائلًا:

- سامحني يا حسين..

- ما تخافش يا سميح.. مش هسيبك تموت.

- أنا جزائي هو الموت بعد كل اللي عملته، أنا السبب في كل دا، أنا اللي نزلتكم البير..

- انت لازم تبقى أقوى من كدا!

- علي.. الحق علي يا حسين.

هنا دوى انفجار عظيم اهتزت له الأرض وظهرت نيران كان مصدرها البئر، فابتسمت براهم حين رأت كيانات كثيرة تخرج من البئر، كان علي يقف بجوارها هو وأسموديس، حاول حسين أن يستميل علي بكلامه قائلًا:

- الأوان لسه ما فاتش يا علي.. ارجع لنا..

- أرجع لمين؟ أنا ماحدش حبني قدهم!

- انت مش فاهم حاجة، دول عايزين يموتونا كلنا.

- الاتفاق كان على موتكم انتم مش أنا!

لم يشعر حسين بنفسه إلا وهو يركض تجاههم بعد أن أخذ السيف من أنس ليغرسه في جسد أسموديس، فيتألم الأخير صارخًا حتى يحترق، أما براهم فقد استشاطت غضبًا ثم وقالت:

- كفانا ألاعيب يا علام!

دفعته دفعة قوية ليسقط أرضًا ووقفت قائلة:

- أقسمت عليكم يا سكان البئر أن تأتوني الآن أقدم لكم القرابين الخمسة، فلتفتح أبواب الجحيم بدم النواريين ونسلهم.. هلموا إليَّ يا حكام العالم السفلي..

وقف أنس أمامها بعد أن ساعد حسين على النهوض قائلًا:

- لو عايز تنقذ علي يبقى لازم تساعدني!

- وأنا المفروض إعمل إيه؟

- لازم نرجعهم البير تاني..

- وهنعمل دا إزاي؟

- هنحاربهم بنفس طريقة خداعهم.

تقدم أنس قليلًا ثم قال:

- إحنا هنساعدكم إنكم تكملوا طقسكم، بس لازم نفهم انتوا عايزين إيه مننا بالظبط!

- لازم تموتوا يا أنس.. الدم يا ابن سالم.. الدم.

- وأنا موافق، بس سيبوا حسين وعلي. انتِ عايزاني أنا أكتر واحد فيهم.

لم يكن يدرك أنس حينها أن أسموديس يقف خلفه مكشرًا عن أنيابه الشيطانية، ثم رفع مخلبه في الهواء وهوى به على أنس ليسقط أرضًا متألمًا تسيل الدماء من جسده، ولكن وقف أنس مرة أخرى أمام براهم بقوة فعقدت حاجبيها قائلة:

- ما كنتش أعرف إنك قوي كدا يا ابن سالم!

- ده جزء بسيط من قوة النواريين، ودوقتي جه الوقت اللي تشوفي فيه القوة الحقيقية.

أمسك أنس بأسموديس ثم وضع رأسه في دمائه السائلة على الأرض، فصرخ أسموديس ووجهه يحترق، فقالت براهم:

- انت إزاي عارف الأسرار دي كلها؟

- دم النواريين زي ما قادر يفتح البير قادر كمان يقضي عليكم. أنا أنس النوراني حامي بئر الشيطان، أنا المبعوث لقتل الشيطان نفسه..

رفع أنس جسد أسموديس صارخًا ثم ألقى به تجاه البئر ليسقط داخله ثم قال:

- كدا مش باقي غيرك انتِ يا براهم..

اقترب حسين من خلف براهم وكاد يحملها ليسقطها في البئر،

ولكن سبقه علي دافعًا إياه ليسقط أرضًا، ثم قال:

- مش هسيبك تهد كل اللي أنا عملته..

- يا علي، انت لازم تفهم.. انت مننا مش منهم!

- فات أوان الكلام دا يا ابن علام.

وجه علي لكمة إلى حسين، فرد عليه الآخر بواحدة أقوى منها، ثم دفعه بقدمه ليسقط أرضًا، فنهض علي ممسكًا بيده بعض التراب لينثره في وجهه، ثم يدفعه بقدمه ليسقط أرضًا وينهال عليه علي باللكمات. سرعان ما استطاع حسين أن يدفعه، ثم نظر حوله ليجد حجرًا صغيرًا، أمسك به وكاد يحطم به رأسه، ولكن تراجع في اللحظة الأخيرة ونهض قائلًا:

- انت فعلًا ضعيف يا علي، أضعف مما كنت أتخيل.. وضعفك دا سبب اللي انت وصلت له.

اقترب أنس من براهم من جهة وحسين من الجهة الأخرى، فرفعت يدها في الهواء تحاول أن تستدعي شياطينها، ولكن باءت محاولتها بالفشل، فصرخت قائلة:

- هما فين؟ إزاي تتخلوا عني دلوقتي؟!

فجاءت الإجابة من أنس قائلًا:

- عشان استنفدوا كل حاجة فيكِ وعرفوا إن دي نهايتك، عشان صدقتِ خداعهم ومكرهم، وزي ما خرجنا من البير زمان وقدرنا نقفله هنقفله تاني.

تعالت ضحكاتها قائلة:

- وانت مين قالكم إنكم خرجتم من البير أصلًا؟ مش يمكن تكونوا لسه جوا!

قطب حسين حاجبيه وأخذ يفكر في الأمر، ولكن سرعان ما جاءه صوت أنس قائلًا:

- ما تسمعلهاش، دي بتحاول تشتت عقلك!

هنا اقترب حسين من براهم وغرز السيف في جسدها، فصرخت الأخيرة متألمة وركض أنس ليسحب يد علي إلى جواره، ثم وقف الثلاثة يراقبونها وهي تتلوى أمامهم. كان جسدها يذوب واللحم يتساقط، كانت تنظر إلى يدها وتصرخ وهي ترى لحمها يذوب أمامها فصرخت قائلة:

- ساعدوني.. انتم قولتوا إنكم هتساعدوني.. انتوا وعدتوني!

فأجابها أنس قائلًا:

- وعد الشيطان باطل يا براهم..

ظهرت يدٌ كبيرة من داخل البئر لتأخذ براهم، ثم أخذ علي يصرخ قائلًا:

- انت عملت إيه؟ عملت إيه؟

ركض علي تجاه البئر وقفز داخله، ولكن تبعه حسين وأمسك به وأصبح معلقًا، ثم نظر حسين ليجد البئر مشتعلًا بالنيران، وأشياء

تتحرك بداخله أقل ما يقال في وصفها أنها مسوخ لديها أيادٍ كثيرة، تحاول أن تسحب علي إلى الداخل، حاول حسين أن يقاوم ولكن تلك الأيادي كانت أقوى منهم، فسقط علي وحسين داخل بئر براهم.

أما أنس، فلم يستطع إنقاذهم، حتى بعد أن حاول جذب حسين، فسقط أرضًا واصطدم رأسه وغاب عن الوعي.

***

سجن العقرب، 2021..

فتحت أبواب السجن التي كانت حجرًا صحيًا لعزل المصابين، وانتهت جائحة كورونا، أما زنزانة 55 فبرغم فتح بابها فلم يخرج المعزول حتى الآن.

على هدى ضوء خفيف، كان يجلس رجل ذو لحية خفيفة يتكئ على عصاه مغمض العينين، تقدم الغرفة أحد الحراس قائلًا:

- أستاذ علي، ممكن تخرج لو حابب!

نظر إليه علي علام قائلًا:

- هو إحنا بقينا سنة كام؟

- 2021.

ابتسم علي حين رأى من خلف الحارس كيانًا ضخمًا كبيرًا، جز عنق الحارس وسالت الدماء لتصل إلى قدم علي علام، نهض وتقدم ليقف أمام الكيان قائلًا:

- أظن جه الوقت إننا نفتح البئر تاني!

***

الهدوء يعم ذلك الشارع المظلم القابع في منطقة وسط البلد، إلا من سيارة فارهة سوداء اللون يقودها مجموعة من الشباب الساهرين في ذلك الوقت المتأخر من الليل وهم يستمعون لبعض من الأغاني الركيكة الصاخبة. توقفت السيارة أمام باب فيلا متهالك، ثم ترجل منها أربعة أشخاص وتقدموا إلى داخل الفيلا. دلفوا إلى حديقتها الذابلة، ثم أزاحوا بعضًا من الأشجار ليظهر باب خشبي قاموا بفتحه ببساطة شديدة جدًا، فهم يعرفون المكان جيدًا، فهو وكرهم لإقامة حفلاتهم السرية، وليستنشقوا بعضًا من موادهم المخدرة.

تقدم ثلاثة منهم إلى الداخل، أما رابعهم ما لبث أن تقدم خطوة واحدة من الباب الخشبي حتى سمع صوت شيء يتحرك يأتي من خلفه. نظر خلفه فوجد بئرًا حجريًا لم يلاحظه من قبل، مغلق بغطاء دائري من الحجر. خُيل له أنه سمع شخصًا يستنجد من الداخل! تقدم أكثر وتأكد حين سمع صوتًا يقول:

- الحقوني.. الحقوني.. حد سامعنا؟!

أزاح الشاب الغطاء بصعوبة بالغة، وصُعق حين رأى شخصًا وجهه مشوه وكأنه تعرض لأبشع أنواع الضرب والتعذيب، ساعده الشاب على الخروج من البئر وبدأ الشخص يلتقط أنفاسه ثم سأله الشاب قائلًا:

- انت مين وإيه اللي جابك هنا؟!

- أنا حسين علام.

تمت

2023 / 7/ 5